مِن سُنَنِ النُّهُوض

سلسلة الكلمة الطيبة

جمعية معاذ العلمية لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية

جمعية معاذ العلمية

لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية

1445 هـ - 2024م

muath.t.y
www.muath.org

جمعية معاذ العلمية

مشروع

الحلقات القرآنية

هدف المشروع

خدمة كتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة وعملاً، والمساهمة في تحصين الشباب من الأفكار المنحرفة، وتربية الجيل على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

كفالة الحلقة الواحدة في السنة

800 $

المركز الرئيس:
شارع جمال تعز - اليمن
+967711120996
+9674250845

حسابنا البنكي:
مصرف اليمن البحرين الشامل 5699480
بنك سبأ الإسلامي 45021

سلسلة
الكلمة الطيبة
16

من سنن النهوض

جمعية معاذ العلمية
لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية

يوزع مجاناً

1445 هـ - 2024م

قائمة المحتويات

أ	المقدمة	٦
١	سنة الدين (الفكرة المركزية)	٨
٢	سنة التغيير	١٢
٣	سنة الاصطفاء	١٦
٤	سنة العصبة (الكتلة الحرجة)	١٩
٥	سنة المجاهدة	٢٣
٦	سنة الفرقان	٢٧
٧	سنة الأمن الجغرافي	٣٠
٨	سنة التدافع	٣٣
٩	سنة العداوة	٣٧
١٠	سنة الابتلاء	٤٠
١١	سنة التمحيص	٤٣
١٢	سنة التمييز	٤٦
١٣	سنة الزلزلة	٤٨
١٤	سنة الوقاية	٥٢
١٥	سنة التداول (السجال)	٥٥

قائمة المحتويات

١٦	سنة المراجعة	٥٩
١٧	سنة الانتصار من الباغي	٦١
١٨	سنة النبذ للمرجفين	٦٥
١٩	سنة إهلاك العدو	٦٨
٢٠	سنة الإنقاذ	٧٢
٢١	سنة التأييد الإلهي	٧٦
٢٢	سنة القوة	٧٩
٢٣	سنة النصر	٨٢
٢٤	سنة التمكين	٨٦
٢٥	سنة الوفرة	٨٩
٢٦	سنة الأمن العام	٩٣
٢٧	سنة الفتح (التمدد)	٩٧
٢٨	سنة الانتقاء	١٠١
٢٩	سنة الاستخلاف (السيادة)	١٠٥
٣٠	سنة الرفاه	١٠٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد ﷺ، ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

لله تعالى في كل ما خلق سننٌ ثابتة، وقوانين حاكمة لا تتغير ولا تتبدل،﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]، **وظهور الأمم والدول والحضارات، وبقاؤها أو اندثارها لا يكون إلا وفق سنن الله تعالى المتصلة بالبشر، والتي ـ كما يقول الدكتور فتحي حسن ملكاوي ـ: " تتصل اتصالاً مباشرًا بالتوحيد والتزكية والعمران، بوصفها قيمًا حاكمة أولى للوجود البشري"** (مجله الفكر الإسلامي المعاصر، ع ١٠٥، ١٢٢).

لقد وجه القرآن الكريم الإنسان إلى السير في الأرض للتفكر في مآلات السابقين، لتجنب السقوط، واكتشاف سنن النهوض، فقال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، **وقال:** ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ﴾[العنكبوت: ٢٠].

إن مهمة الإنسان في الأرض كخليفة لله﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**[البقرة: ٣٠]، تتمحور في إعمارها بمنهج الله** ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، **وهذا الإعمار لا يكون حقيقة واقعية إلا إذا كان منسجمًا مع سنن الله الناهضة بالإنسان فردًا ومجتمعًا وأمة.**

والقرآن الكريم أنزله الله تعالى كتاب هداية ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الاسراء: ٩]، **ومن هذا المنطلق فإن المسلم مطالبٌ بقراءة تدبرية له، وقراءة تفكرية للكون لاكتشاف سنن الله الفاعلة في الحياة، وإحسان تسخيرها بما يُصلح حال البشرية ويسترد إنسانيتها، كما هو مطالبٌ ـ أيضًا ـ بتحقيق دوره الرسالي وشهوده الحضاري للأمة الوسط الممتد منذ بدء رسالة الإسلام** ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٣٠].

وها نحن في إدارة العلوم الشرعية بجمعية معاذ العلمية لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية نضع بين أيديكم كتاب (من سنن النهوض) كخطوة في طريق استرداد الأمة الإسلامية لدورها في عملية البناء الحضاري، وتكوين ثقافة سُننيَّة ناهضة، خاصة وأن الأمة الإسلامية اليوم تواجه حربًا شَعواءَ على كل المستويات.

يأتي هذا الكتاب على نسق الكتاب السابق الذي أصدرته الجمعية بعنوان (من قيم الحضارة الإسلامية)، من حيث محاور موضوعاته _(المقدمة، والآيات، والروايات، والنقولات)_ ، ويضم الكتاب مجموعة من سنن النهوض، بدءًا بسُنَّة (الدِّين) كفكرة مركزية تنطلق منها جميع سنن النهوض، وتقوم عليها، لينتهي الكتاب بسُنَّة (الرفاه) الممثلة لحالة الذِّروة التي تصل إليها الأمة إنْ هي اهتدت بسنن الله تعالى ،واستفادت من جميع ما سخره لها لخدمة الخلق، وإعمار الأرض بمنهج الله الشامل.

إن جميع ما حواه هذا الكتاب يعد محاولة أولية تفتح المجال واسعًا لمزيدٍ من الكتابات في سنن الله تعالى، وكلنا يقينٌ أن مضمون الكتاب في حاجة إلى جهود العلماء العاملين، والمفكرين الناضجين، والمتخصصين المخلصين، والدعاة الصادقين، ليكون أنضج فكرة، وأبهى حلة، سائلين الله عز وجل أن ينفع به، وأن يُجزل الثواب والعطاء لكل من ساهم في إعداده، وتنقيحه، وتصحيحه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

إدارة العلوم الشرعية

بجمعية معاذ العلمية

لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية

سنة الدِّين (الفكرة المركزية)

يقول ابن خلدون: "الفصل الرابع: في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق؛ وذلك لأنّ الملك إنّما يحصل بالتّغلّب، والتّغلّب إنّما يكون بالعصبيّة، واتّفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها، إنّما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، قال تعالى : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ **[الأنفال: ٦٣]، وسرّه أنّ القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدّنيا، حصل التّنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحقّ ورفضت الدّنيا والباطل، وأقبلت على الله اتّحدت وجهتها فذهب التّنافس وقلّ الخلاف، وحسن التّعاون والتّعاضد، واتّسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدّولة"** (تاريخ ابن خلدون ، ١ / ١٩٧).

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ويقول الله تعالى:﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ **[آل عمران: ١ - ٤] ويقول الله تعالى:** ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ **[إبراهيم]: ويقول الله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ **[إبراهيم: ٥] ويقول الله عَزَّوَجَلَّ:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ **[البقرة : ١٤٣] ويقول تبارك وتعالى في بيان وظيفة المسلم في الحياة:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ **[الحج:٧٨].**

دين الإسلام هو دين الفطرة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» رواه البخاري، ومسلم، ودينُ الأنبياء واحدٌ، قال النبي ﷺ: « والْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ (أبوهم واحد وأمهاتهم شتى)، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ » رواه البخاري، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًا، ثم قال: « هذا سبيلُ الله، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: هذه سُبل، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَاتَّبِعُـوهُ وَلا تَتَّبِعُـوا السُّـبُلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُـمْ عَـنْ سَـبِيلِهِ﴾ » رواه أحمد والنسائي، وحذر الرسول الكريم ﷺ من الغلو في الدين لمجافاته حقيقة الدين، فقال: « إياكم والغُلُوَّ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغُلُوُّ» رواه ابن ماجة وأحمد، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إنَّ هذا الدِّينَ مَتينٌ، فأوْغِلوا فيه برِفقٍ» رواه أحمد، وعنْ أبي هُريرةَ رضي الله عنه عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدِّينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينُ إلَّا غلَبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبْشِروا، واستعينوا بالغَدْوةِ والرَّوحَةِ وشيءٍ من الدُّلجَةِ» رواه البخاري.

وفي المستدرك على الصحيحين : عن طارق بن شهاب ، قال : خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فأتوا على مخاضة [المخاضة: مكان ضحل]،وعمر على ناقةٍ له، فنزل عنها، وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا ، تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك ، وتأخذ بزمام ناقتك ، وتخوض بها المخاضة ؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك» ، فقال عمر : " أوه... لم يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالًا لأمة محمد ﷺ، إنا كنا أذل قومٍ فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله " وفي رواية : فقال عمر : " إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نبتغي العزة بغيره " ، ولما أرس سعد بن أبي وقاص ربعي بن عامر رسولاً إلى جيش الفرس، قالوا له: ما جاء بكم؟، فقال: " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبلَ ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفضي إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟، قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي".

يقول الدكتور محمد عبدالله درَّاز رحمه الله في كتابه القيم (الدِّين): " إن الخدمة الجليلة التي يؤديها الدين للأمة ليس كونه المذهب القوي لتهذيب السلوك، وتصحيح المعاملة، وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد؛ بل إن له وظيفة إيجابية أعمق أثرًا في كيان الأمة، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، لا يعدله رباطٌ آخر من الجنس، أو اللغة، أو الجوار، أو المصالح المشتركة، بل إن هذه العلائق مجتمعة مهما يكنْ أثرها الظاهري من كفِّ الأذى، وبذل المعروف

المتبادل، تظل روابط سطحية تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية حتى تشدها رابطة الأخوة في العقيدة، والمشاركة في القيم العليا؛ فهناك تعود الكثرةُ وحدةً، وتصبح النفوسُ كالمرايا المتقابلة، تنعكس صورَ بعضها في بعضٍ فتنعقد بها أقوى الوشائج وأدومها بين أفراد اختلفت أجناسهم، وتباينت لهجاتهم، وتباعدت ديارهم". (الدين، ٩٤)

لقد تعرضت الأديان السماوية واليهودية والنصرانية للتحريف ما يجعلها أديانًا وضعية، ولم يصمد دون تحريفٍ إلا الإسلام، ولذلك لن يقبل الله من البشر غير الإسلام الذي أوحاه إلى محمدﷺ لأنه الدين الحق الذي أوحاه الله أيضاً إلى آدم قبل ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين جميعاً، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣]، ودين الله هنا ونظامه وشرعه بما فيه من معتقدات وتصورات وقيم ومبادئ وأحكام تنظم حياة البشرية الفردية والجماعية، وتنظم العلاقة بالكون وبالله تعالى، وقد كانت حياة المسلمين الأوائل على عهد رسول اللهﷺ ومن جاء بعدهم نموذجاً مثالياً لهذه الحياة المستقيمة المطمئنة، عن عمران بن الحصين رضي الله عنه عن النبيﷺ أنه قال: « خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ» رواه البخاري ومسلم.

ورغم انحراف الأمة عن هذا الدين لكن الله يُقيض لها في كل ١٠٠ عام من يجدد لها دينها فيعيدها إلى منابعه الصافية الأولى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يبعثُ لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » رواه أبو داود ،وبهذا التجديد تتجدد الخيرية في هذه الأمة فتكون كالغيث لا يُدرى أوله خيرٌ أم آخره «أمَّتى كالمطرِ لا يُدرى أولُّه خيرٌ أم آخرُه» رواه الترمذي وأحمد.

واليوم يتكالبُ أعداءُ هذا الدين عليه لاجتثاثه، وإبادة أمته، ومطاردة دعاته بعد أن كان هذا الدين يحقق انتصاراتهم في ميادين مختلفة في عودة المسلمين إليه، وإقبال غيرهم عليه، وإحياء كثيرٍ ممن اندرس من تعاليمه ما أفزع أعداءه عن الحرب عليه ما يجب على المؤمنين به إعلان النفير لنصرته والمرابطة في ثغوره تعلماً، والتزاماً ومدافعه حتى يُقيض الله لدينه أمر رشد يعز فيها أهل طاعته إنه عزيزٌ كريمٌ.

يقول المفكر مالك بن نبي رحمه الله متحدثًا عن دور المسلم ورسالته في الحياة : " لو حاولنا

تحديد دور المسلم عامة ما كان لنا أن نختار غير ما اختاره الله له دورًا في التاريخ، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣]، هكذا يحدد الله دور المسلم بصورة عامة ، وليس لنا أن نختار له دورًا أشرف وأفضل منه". (دور المسلم ورسالته، ١٠-١١)

ويقول سيد قطب رحمه الله في كتابه (المستقبل لهذا الدين) : " ونحن نعتقد أن المستقبل لهذا الدين، باعتباره منهج حياة، يشتمل على تلك المقومات كلها مترابطة، غير منفصلة بعضها عن بعض، المقومات المنظمة لشتى جوانب الحياة البشرية، الملبية لشتى حاجات (الإنسان) الحقيقية، المهيمنة على شتى أوجه النشاط الإنسانية... فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين، ومن حاجة البشرية إلى هذا المنهج، نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع، في أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دوراً في هذه الأرض هو مدعو لأدائه – أراد أعداؤه كلهم أم لم يريدوا – وأن دوره هذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى – كما لا يملك منهج آخر– أن يؤديه، وأن البشرية بجملتها لا تملك أن تستغني طويلاً عنه". (المستقبل لهذا الدين، ٥)

وقال محمد إقبال رحمه الله:

شِرعَةُ الحقِّ نظامُ الأُممِ ... ومن النَّظمِ دوام الأممِ
إنَّ فيه الأيد يا من أخلصَا ... اليدُ البيضاءِ فيه والعصا
قامَ للإسلام بالشَّرعِ قوامٌ ... بَدؤهُ الشَّرعُ وبالشَّرعِ الختامُ
إنَّ دينَ المصطفى دينُ الحياةِ ... شَرعهُ للناسِ قانونُ الحياةِ
إنْ تكنْ أرضًا يُصيركَ السماء ... ويُربيكَ كما الحقُّ يشاءُ
يصقلُ المرآةَ من صخرٍ شديدٍ ... ويُنقِّي الرَّيْنُ من قلبِ الحديدِ

2 سنة التغيير

تعد سنة التغيير من أهم سنن الله الكونية التي تحمل خاصية العموم المطلق، والثبات المطلق، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، **والتغيير مطلقاً بشري ابتداءً، وعلى الإنسان الذي تحمل أمانة التكليف ألا يَكِلَ وظيفة التغيير الإنساني إلى الله بصورة مباشرة، أو عبر معجزات خارقةٍ للمألوف** ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، **لم يصف الله تعالى الإنسان بكلمتي** ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ **بسبب تحمله الأمانة، وإنما وصفه بهذا الوصف؛ لأنه لم ينفذ أمانة التغيير نحو الأفضل، ولذلك يكون الملتزمون بأمانة التكليف بالتغيير نحو الحسنى والأحسن غير داخلين بهذا الوصف الذي جاء في سياق مخازي المنافقين والكفار.**

وسنة التغيير في الأفراد والأمم، ليست خبط عشواء، بل إنها تسير وفق ناموس وقاموس إلهي، وقد ذكر الله –تعالى– قانونه في التغيير، بقوله:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. **وقال تعالى :** ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ [الإسراء : ١٩] **وقال سبحانه وتعالى :** ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] **وقال المولى تبارك وتعالى :** ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ [الكهف : ٦] **وقال الله تعالى:** ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١]، **وقال الله عَزَّوَجَلَّ :** ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس : ٢٠]، **وفي ارتباط خيرية الأمة بقيامها بواجب التغيير يقول تعالى:** ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، **و في مواصفات المستحقين لرحمة الله قال تعالى:**﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٧١]، **وفي بيان سعي الأنبياء عليهم السلام إلى تغيير بعض النظم والظواهر الاجتماعية السلبية السائدة في المجتمعات؛ كمقاومة نبي الله موسى عليه السلام بمعية أخيه هارون عليه السلام ظلم الحكم الطاغي لفرعون، يقول تعالى:** ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٤٣]، **وسعي نبي الله لوط عليه السلام إلى**

منع الفاحشة السائدة في قومه، كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥]، **ومنع نبي الله شعيب عليه السلام تطفيف الكيل والميزان في قومه، ونهيهم عن الفساد في الأرض،** ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]. **وإنكار إبراهيم عليه السلام للتقليد الأعمى، وجداله لأبيه، وتحديه لقومه، وتحطيمه للأصنام، يقول تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، **وفي ذكر الله تعالى لوصية لقمان لابنه :** ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[لقمان:١٧].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سَمعتُ رسول الله ﷺ: « مَن رَأَى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ » رواه مسلم، **وروى جريرُ بن عبد الله رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «ما مِن قومٍ يُعمَل فيهم بالمعاصي، يَقْدِرُون أن يُغَيِّروا فلا يُغَيِّرُون، إلَّا أصابَهم اللهُ بعقاب»** رواه أبو داود، **وخطب أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه الناسّ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ هَذِهِ الْآيَةَ :** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ **، وَإِنَّا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ »** رواه الإمام أحمد وأبو داود، **وعن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ رضي الله عنهما، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَثَلُ المُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالوَاقِعِ فِيهَا، مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا، فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ المَاءِ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ»** رواه البخاري.

إن من المعلوم بداهة أن الإنسان بإمكانه أن يفعل الخير، وأن يفعل الشر، ولهذا ابتلاه الله بفعل الخير، وترك الشر ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] **بخلاف الملائكة الكرام الذين خلقهم الله متمحضين للخير** ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، **ولا ريب أن مقام الإنسان كبير حين يغلب خيرهُ شرَّه** ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إن الذين يَكلونَ التغيير إلى شخصٍ معينٍ، ويلغون التغيير الذي كُلفت به الأمة، لا أقول إنهم

يهدمون سنة التغيير نحو الأحسن والحسنى فقط، بل هم يهدمون هذه السنة العظيمة، ويهدمون ما ترتب عليها، أي أنهم يهدمون مبدأ الاستخلاف الإلهي للإنسان بعمارة الأرض، المحقق لعبودية الله تعالى، ويهدمون الرسالات، والنبوات، والشرائع المتضمنة للتكاليف التي حملها الإنسان المنوط به التغيير، ويهدمون قدرات الإنسان، ووظيفته العليا، فضلاً عن أنهم يهدمون دين الله الذي جعل كمال التكريم منوطاً بالتغيير نحو الأحسن، ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]، **على أن من يقرأ نصوص القرآن الكريم يجدها تدعو للتغيير نحو الحسنى، والثبات على الاستقامة الحسنة** ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] ، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود ١١٢ ـ ١١٣].

وقد ذكر محمود شلتوت ﷺ في كتابه (من توجيهات الإسلام) مراتب التغيير الثلاث المعروفة، وأوضح أن لكل مرتبة أهلها، فالتغيير باليد منوطٌ بالحكام القادرين على التغيير العملي العام، وأرباب الأسر في محيطهم، والمربين، وسائر الرؤساء الذيم ملَّكَهم القانون شيئًا من صور التغيير العملي، وأما الإنكار بالقول فهو منوطٌ بأهل الوعظ والتوجيه، سواءٌ كانوا من علماء الدين والتربية، أو القائمين على منابر الإعلام، وأما من يعجز عن التغيير بالفعل أو القول فعليه أن يعبر عن موقفه بما نسميه (الإنكار السلبي)، الذي يدفع المرء إلى مقاطعة أهل المعصية ومظانها» ، ذلك أن المؤمن إذا لم يستطع أن يكون حربًا على الباطل وأهله، فلا أقل من ألا يكون عونًا لهم، كما يقول الشيخ محمد الغزالي ﷺ.

ومن المعلوم أن التغيير يبدأ بقناعات نفسية، ويتوسطه أفعالٌ تظهر على الجوارح، وينتهي سلوكاً يتحلى به الفرد والمجتمع والأمة على السواء، كما يجب أن يكون التغيير متضمناً لمصالح الناس ليحفظ لهم الكليات الخمس التي جاءت الشرائع السماوية لحفظها، وهي حفظ النفس، والدين، والعقل، والمال، والعرض، ويجب أن يتضمن التغيير دفع الضرر عن الناس، وذلك ما جاءت به الشرائع من جلب المصالح ودفع المفاسد.

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: "إن الله تعالى لا يعذب العامة بذنب الخاصة، فإذا المعاصي ظهرت، فلم تغير أُخذت العامة والخاصة"، وهكذا آل الأمر إلى أمراء الطوائف في الأندلس الذين كانوا مستعدين لتقديم تنازلات كثيرة للأعداء في سبيل بقائهم! بقاء مصالحهم الخاصة!.

يقول ابن حزم: "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم

يستمدون النصارى فيمكنونهم من حُرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أُسرى إلى بلادهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس" (رسائل ابن حزم، ١٩/٢).

إن التغيير المشهود هو ذلك التغيير الجماعي الذي يُخرج الناسَ من قبضة الاستبداد إلى الشورى، ومن قبضة الفرد إلى رحاب المجتمع، ومن التخلف إلى الريادة والنهوض، ومن الخرافات إلى الإيمان الصحيح، ومن التَّبعية إلى مركز الشهود والقرار، لا بأس من التغيير مهما كانت ضخامة المعوقات، ومن يقرأ تاريخ الرسل و أتباعهم الضعفاء يدرك أن انتصار أهل الحق آتٍ ومحقق، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، **و قوله تعالى:** ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٨].

إن من لا يسعى نحو الأحسن سيبقى في دائرة التخلف، ولن يكون مؤثراً في الحياة، ينطبق عليه قول الشاعر قُرَيْط بن أُنَيْف التميمي:

لو كنتُ مِن مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بنو اللَّقِيطَةِ مِن ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا
إذن لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عندَ الحَفِيظَةِ إِنْ ذو لُوثَةٍ لانَا
لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ ... في النَّائِبَاتِ على ما قال بُرْهَانَا
لكنَّ قومِي وإِنْ كانوا ذَوِي حسب ... ليسوا مِن الشَّرِّ في شيءٍ وإِنْ هَانَا

ومن الشعر الذي يصور واقع أمتنا المنكسر، شعر عمر أبي ريشة الذي قال فيه:

أُمَّتِي هَلْ لَكِ بَينَ الأُمَمِ ... مَنبَرٌ لِلسَّيْفِ أَوْ لِلْقَلَمِ
أَتَلَقَّاكِ وَطَرْفِي مُطْرِقٌ ... خَجَلاً مِنْ أَمْسِكِ الْمُنْصَرِمِ
أَلإِسْرَائِيلَ تَعْلُو رَايَةٌ ... فِي حِمَى الْمَهْدِ وَظِلِّ الْحَرَمِ؟
كَيْفَ أَغْضَيْتِ عَلَى الذُّلِّ وَلَمْ ... تَنْفُضِي عَنْكِ غُبَارَ التُّهَمِ؟
أَوَمَا كُنْتِ إِذَا البَغْيُ اعْتَدَى ... مَوْجَةً مِنْ لَهَبٍ أَوْ مِنْ دَمِ؟
كَيْفَ أَقْدَمْتِ وَأَحْجَمْتِ وَلَمْ ... يَشْتَفِ الثَّأْرُ وَلَمْ تَنْتَقِمِي؟
اسْمَعِي نُوحَ الْحَزَانَى وَاطْرَبِي ... وَانْظُرِي دَمْعَ اليَتَامَى وَابْسَمِي
وَدَعِي الْقَادَةَ فِي أَهْوَائِهَا ... تَتَفَانَى فِي خِسِّيسِ الْمَغْنَمِ

3 سنة الاصطفاء

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] **هذه آيةٌ كريمةٌ في كتاب الله تعالى أشارت إلى وحدة الإنسانية، وعودتها إلى آدم عليه السلام أبي البشر الأول، وإلى نوحَ عليه السلام أبي البشر الثاني بعد الطوفان، وإلى وحدة النبوة والرسالة بعودتها إلى إبراهيم وآل عمران عليهم السلام والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي ﷺ ، ومبدأ الاصطفاء الإلهي لرسله بالاختيار والانتخاب، والاستخلاص، والتفضيل، والرفع، والتصفية من الشوائب والكدورات، وهي المعاني التي وردت في الاستعمال القرآني واللغوي لمادة (اصطفى)، وأختها (أجتبى).** (لسان لابن منظور ٢٥٨/٨)، (تاج العروس، ١٩/٢٦٧).

في قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٣_ ٨٧] ، **وقال تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] **وقال تعالى:** ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٣٣] ، **واصطفى الخليل عليه السلام لقيادة الملة الحنيفية:** ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] **واصطفى يوسف عليه السلام لإنقاذ مصر من المجاعة**﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [يوسف: ٥٥، ٥٦]، **واصطفى موسى عليه السلام لإنقاذ بني إسرائيل من الاستبداد :** ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤] ، **ثم اصطفى طالوت عليه السلام في معركة استرداد حقوق المستضعفين:** ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ

إِنَّ اللّهَ اصْطَفَـاهُ عَلَيْكُـمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِـي الْعِلْـمِ وَالْجِسْـمِ وَاللّهُ يُؤْتِـي مُلْكَـهُ مَـن يَشَـاءُ وَاللّهُ وَاسِـعٌ عَلِيـمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، **ثم اصطفى عَقِبَه داود عليه السلام لقيادتهم في معركة التنمية وإقامة الدولة:** ﴿ فَهَزَمُوهُـم بِـإِذْنِ اللّهِ وَقَتَـلَ دَاوُودُ جَالُـوتَ وَآتَـاهُ اللّهُ الْمُلْـكَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَـهُ مِمَّـا يَشَـاءُ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، **واصطفى من النساء مريم عليها السلام:** ﴿ وَإِذْ قَالَـتِ الْمَلاَئِكَـةُ يَـا مَرْيَـمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَـاكِ وَطَهَّـرَكِ وَاصْطَفَـاكِ عَلَى نِسَـاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، **وجعل الاصطفاء قاعدة في كل الرسالات ومع كل الأمم:** ﴿ ثُـمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّذِيـنَ اصْطَفَيْنَـا مِـنْ عِبَادِنَـا فَمِنْهُـمْ ظَالِـمٌ لِّنَفْسِـهِ وَمِنْهُـم مُّقْتَصِـدٌ وَمِنْهُـمْ سَـابِقٌ بِالْخَيْـرَاتِ بِـإِذْنِ اللّهِ ذَلِـكَ هُـوَ الْفَضْـلُ الْكَبِيـرُ﴾ [فاطر : ٣٢]، **وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِائَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»** رواه مسلم.

يقول أبو جعفر الطبري رحمه الله في تأويل قوله تعالى : ﴿ أُولَئِـكَ الَّذِيـنَ أَنْعَـمَ اللّهُ عَلَيْهِـمْ مِـنَ النَّبِيِّيـنَ مِـنْ ذُرِّيَّـةِ آدَمَ وَمِمَّـنْ حَمَلْنَـا مَـعَ نُـوحٍ وَمِـنْ ذُرِّيَّـةِ إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْـرَائِيلَ وَمِمَّـنْ هَدَيْنَـا وَاجْتَبَيْنَـا إِذَا تُتْلَـى عَلَيْهِـمْ آيَـاتُ الرَّحْمَـنِ خَـرُّوا سُـجَّدًا وَبُكِيًّـا ﴾ [مريم: ٥٨] **يقول الله لنبيه ﷺ هؤلاء الذين قصصتُ عليك أنباءهم في هذه السورة يا محمد، هم الذين أنعم الله عليهم بتوفيقه فهداهم لطريق الرشد من الأنبياء من ذرية آدم، ومن ذرية من حملنا مع نوح في الفلك، ومن ذرية إبراهيم خليل الرحمن، و من ذرية إسرائيل، وممن هدينا للإيمان بالله والعمل بطاعته، يقول : وممن اصطفينا واخترنا لرسالتنا ووحينا ، فما أحوج الأمة اليوم – أمة الخيرية والشهادة – إلى التشبع بهذا المبدأ القرآني (الاصطفاء) لأنه يدعو إلى التمسك بدين الإسلام الرسالة الخاتمة،** ﴿ إِنَّ الدِّيـنَ عِنْـدَ اللّهِ الْإِسْـلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] **الذي ارتضاه الله لعباده** ﴿ وَرَضِيـتُ لَكُـمُ الْإِسْـلَامَ دِينًـا ﴾ [المائدة : ٣] **، واختار لها نبيها محمداً ﷺ واصطفاه من ذرية الأنبياء ، قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسْماعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِن كِنانَةَ، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ »** رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع، صحيح مسلم (٢٢٧٦) ، **فرفع الله عَزَّوَجَلَّ قدر نبينا ﷺ عن نكاح الجاهلية، ونقله في الأصلاب الطاهرة بالنكاح الصحيح من لدن آدم، نقله في أصلاب الأنبياء، وأولاد الأنبياء، حتى أخرجه بالنكاح الصحيح.**

إن المتأمل للهندسة الربانية لتمكين الأنبياء لحمل رسالة الإسلام من لدن خلق آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ في وحدة الموضوع (النبوة والرسالة) ﴿ وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـنْ قَبْلِـكَ مِـنْ رَسُـولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّـهُ لَا إِلَـهَ إِلّا أَنَـا فَاعْبُـدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، **ووحدة الوسيلة** ﴿ ادْعُ إِلَى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَادِلْهُـمْ بِالَّتِي هِـيَ أَحْسَـنُ إِنّ رَبَّـكَ هُـوَ أَعْلَـمُ بِمَـنْ ضَـلّ عَـنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِالْمُهْتَدِيـنَ ﴾ [النحل: ١٢٥]

ووحدة الغاية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، **ليدرك عناية المولى جل وعلا بهذا الموضوع من خلال اختيار الأنبياء والإشراف على تأهيلهم وإعدادهم لقيادة أممهم وشعوبهم؛ لهذا كان طبيعيًا أن ترد في القرآن الكريم إشارات كثيرة لهذا الموضوع منها قوله تعالى مخاطباً بنيه موسى**عليه السلام ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩]، **كما اعتنى الأنبياء والمرسلون** عليهم السلام **هم أيضاً بإعداد قادة من شعوبهم لتحمل أعباء الدعوة معهم وتوليها بعدهم ومنهم سيدنا محمد**ﷺ، **بل إنه عليه الصلاة والسلام ترك منهاجًا فذاً في صناعة القادة وتأهيلهم وتوظيفهم، وظهر أثره في الصحابة رضوان الله عليهم في حياته وبعد مماته؛ فالخلاصة إذاً أن القيادة اصطفاء وصناعة.**

وقال صاحب الرسالة الخالدة:

إن البريةَ يومَ مبعث أحمد ... نظر الإلهُ لها فبدَّلَ حالها
قد كرَّم الإنسانَ حين اختارَ من ... خير البرية بَدرها وهلالها
لبسَ المُرقع وهو قائدُ أمةٍ ... جَبت الكنوزَ فكسَّرتْ أغلالها
لما رآها اللهُ تمشي نَحوه ... لا تبتغي إلا رضاهُ سَعى لها

4 سنة العصبة (الكتلة الحرجة)

تقرر هذه السنة أن كل دعوة للنهوض أو للتغيير الديني أو الاجتماعي أو السياسي تخوض غمار المواجهة مع قوى رافضة لرسالتها وأهدافها ، فإنها لن تتمكن من بلوغ الغاية، ولن يكتب لها الاستمرار إلا بعصبة قوية، أو جماعة منظمة، أو شريحة صلبة تؤمن بالرسالة، وتحمل أعباءها ،وتتحمل مخاطرها، وتضحي من أجلها، وتمنعها من خصومها؛ ولذا على صاحب كل دعوة بعد امتلاك مشروع التغيير الواضح الأهداف والخطى والمعالم، أن يحرص في بداية دعوته على إيجاد هذه الشريحة، وتنظيمها وتوجيهها باتجاه الأهداف المرسومة، وكلما كانت هذه الشريحة صلبة ومنظمة وواعية برسالتها ومؤمنة بها، كلما كانت أقدر على الصمود والاستمرار والتوسع، وسرعة الإنجاز والتعمير (طول العمر) عند بلوغ الغاية، ويدخل هنا في تكوين وتوسيع دائرة العصبة – بعد أهمية وأولوية إيجاد الشريحة الصلبة والجماعة المنظمة – إقامة الأحلاف مع القوى الموجودة على الأرض ضد عدوٍ مشترك، كما يدخل فيها امتلاك الحاضنة المؤيدة من الفئات المختلفة للمجتمع، وهنا ننبه أن مفهوم العصبة لدينا أوسع من مفهومها الخلدوني؛ فهي تعني شريحة التغيير الصلبة والمنظمة بمفهومها الواسع؛ سواء كانت عصبة قبلية أو مالية أو تكوين سياسي بمفهومه الحديث (حزب) ، فكل أمة تتشكل فيها العصبة بحسب طبيعتها ..والله أعلم.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، **وقال لوط** عليه السلام **لقومه:** ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨٠_٨١] **وحكى تعالى عن موسى** عليه السلام **وقومه:** ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ – ٢٦] ، **وقال للحبيب محمد**

ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال:٦٢_٦٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ لُوطًا كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ وَمَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ – المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢ / ٦١١) ، **قال الإمام البغوي: (أَرَادَ بِقَوْلَهُ لِقَوْمِهِ ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَتْ لِي عَشِيرَةٌ لَدَفَعُوكُمْ، تَرَحَّمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ لِسَهْوِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي ضَاقَ صَدْرُهُ، وَاشْتَدَّ جَزَعُهُ بِمَا دَهَمَهُ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى قَالَ: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ، وَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى أَشَدِّ الأَرْكَانِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى).** (شرح السنة للبغوي، ١ / ١١٧)

وعن مُعَاوِيَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» صحيح البخاري

قَالَ الإمام النَّوَوِيّ: "يحْتَمل أَن هَذِه الطَّائِفَة مفرقة من أَنْوَاع الْمُؤمنِينَ، فَمنهمْ شجعان مُقَاتِلُونَ، وَمِنْهُم فُقَهَاء، وَمِنْهُم محدثون، وَمِنْهُم زهاد، وَمِنْهُم آمرون بِالْمَعْرُوفِ وناهون عَن الْمُنكر، وَمِنْهُم أَنْوَاع أخرى من أهل الْخَيْر، وَلَا يلْزم أَن يَكُونُوا مُجْتَمعين بل قد يَكُونُوا مُتَفَرّقين فِي أقطار الأَرْض". (عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ١٦ / ١٦٤)

وعن كعب بن مالك ﷺ: " نمنا تلك الليلة– ليلة العقبة الثانية– مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلّل تسلّل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو بن عدي، فلما اجتمعنا في الشّعب ننتظر رسول الله ﷺ، جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنّه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويستوثق له، فلمّا جلس كان أول متكلّم، قال: يا معشر الأوس والخزرج إنّ محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّة من قومه، ومنعة في بلده، وإنّه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك!! وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الان فدعوه، فإنّه في عزة ومنعة من قومه وبلده ...

قال كعب ﷺ: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله! فخذ لنفسك وربك ما أحببت، فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القران، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما

تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» " .

قال كعب: فأخذ البراء بن معرور بيده، وقال: نعم، فوالذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن– والله– أبناء الحروب، ورثناها كابرا عن كابر، فاعترض هذا القول– والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله! إنّ بيننا وبين الرجال– يعني: اليهود– حبالا وإنّا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ قال: فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» . فقه السيرة للغزالي ، ١٦٠)

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو اللَّيْثِيِّ , عَنْ جَدِّهِ , قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى بَدْرٍ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالرَّوْحَاءِ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَوْنَ؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ , بَلَغَنَا أَنَّهُمْ بِكَذَا وَكَذَا , قَالَ: ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَرَوْنَ» ؟ فَقَالَ عُمَرُ مِثْلَ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ , ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «مَا تَرَوْنَ» ؟ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: إِيَّانَا تُرِيدُ , فَوَالَّذِي أَكْرَمَكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مَا سَلَكْتُهَا قَطُّ وَلَا لِي بِهَا عِلْمٌ , وَلَئِنْ سِرْتَ حَتَّى تَأْتِيَ بِرْكَ الْغِمَادِ مِنْ ذِي يَمَنٍ لَنَسِيرَنَّ مَعَكَ , وَلَا نَكُونُ كَالَّذِينَ قَالُوا لِمُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُتَّبِعُونَ , وَلَعَلَّكَ أَنْ تَكُونَ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَأَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ غَيْرَهُ، فَانْظُرِ الَّذِي أَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَامْضِ لَهُ , فَصِلْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ وَاقْطَعْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ، وَسَالِمْ مَنْ شِئْتَ، وَعَادِ مَنْ شِئْتَ، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى قَوْلِ سَعْدٍ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، وَإِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَنِيمَةَ مَا مَعَ أَبِي سُفْيَانَ فَأَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ الْقِتَالَ". (مصنف ابن أبي شيبة ،٧ / ٣٥٣)

يقول الإمام الجويني رحمه الله : " وما ابتعث الله نبياً في الأمم السالفة حتى أيده وعضّده بسلطان ذي عدة ونجدة ، ومن الرسل عليهم السلام مَن اجتمعت له النبوة والأيد والقوة كداود وموسى وسليمان – صلوات الله عليهم أجمعين " (غياث الأمم ، ١٨٢).

ويقول عبدالرحمن الكواكبي رحمه الله في بيان أهمية العصبة المنظمة في مشروع التغيير: " إن الجمعيات المنتظمة يتسنى لَهَا الثَّبَات على مشروعها عمرا طَويلا يَفِي بِمَا لَا يَفِي بِهِ عمر الْوَاحِد الْفَرد، وَتَأْتِي بأعمالها كلهَا بعزائم صَادِقَة لَا يُفْسِدهَا التَّرَدُّد؛ وَهَذَا هُوَ سر مَا ورد فِي الْأَثر من أَن يَد الله مَعَ الْجَمَاعَة، وَهَذَا هُوَ سر كَون الجمعيات تقوم بالعظائم وَتَأْتِي بالعجائب، وَهَذَا هُوَ سر نشأة الْأُمَم الغربية، وَهَذَا هُوَ سر النجاح فِي كل الْأَعْمَال المهمة، لِأَن سنة الله فِي خلقه أَن كل أَمر كليا كَانَ أَو جزئياً لَا يحصل إِلَّا بِقُوَّة وزمان متناسبين مَعَ أهميته، وان كل أَمر يحصل بِقُوَّة قَليلَة فِي زمَان طَوِيل يكون احكم وارسخ وأطول

عمرا مِمَّا إذا حصل بمزيد قُوَّة فِي زمَان قصير". (أم القرى، ١٧)

يقول رشيد رضا ﷺ:" وفَلَاحُ الْجَمَاعَاتِ وَالْأُمَمِ بِتَكَافُلِ الْمُصْلِحِينَ فِيهَا– وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا – مَبْنِيٌّ عَلَى سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِي الزَّعَامَةِ وَالْعَصَبِيَّةِ، وَتَأْلِيفِ الْجَمَاعَاتِ الَّتِي تُحْدِثُ الِانْقِلَابَاتِ فِي الْأُمَمِ، وَكَوْنِ تَبَاتِهَا وَظَفَرِهَا رَهْنًا بِإِيمَانِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَأَلَّفَتْ لِأَجْلِهِ إِيمَانَ يَقِينٍ عَقْلِيٍّ، وَوِجْدَانِيٍّ قَلْبِيٍّ، وَتَكَافُلٍ عَمَلِيٍّ، وَمِنْهُ وِلَايَةُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ بِصِفَةٍ يَكُونُ فِيهَا الزَّعِيمُ خَيْرُ قُدْوَةٍ لِلْأَفْرَادِ، بِتَفْضِيلِهِ أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ عَلَى أَعْظَمِ الْكُبَرَاءِ مِنْ خُصُومِهِمْ، فَأَمَّا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَقَدْ هَدَاهُمُ الْوَحْيُ إِلَى هَذِهِ السُّنَّةِ .. وَأَمَّا زُعَمَاءُ الْأُمَمِ فِي الْقُرُونِ الْأَخِيرَةِ فَقَدْ هَدَتْهُمْ إِلَيْهَا عِبَرُ التَّارِيخِ وَالتَّجَارِبِ، إِلَى أَنْ دَوَّنَ عُلَمَاءُ فَلْسَفَةِ التَّارِيخِ عِلْمَ الِاجْتِمَاعِ وَفَصَّلُوا فِيهِ سُنَنَّهُ فَعَمِلُوا بِهِ، وَكَانَ إِمَامُهُمْ حَكِيمُنَا الْعَرَبِيُّ ابْنُ خَلْدُونَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ". (تفسير المنار ،١٢ / ١٩٩)

ويقول ابن خلدون ﷺ: " الفصل السادس في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم وهذا لما قدّمناه من أنّ كلّ أمر تحمل عليه الكافّة فلا بدّ له من العصبيّة وفي الحديث الصّحيح كما مرّ «ما بعث الله نبيّا إلّا في منعة من قومه» وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى النّاس بخرق العوائد فما ظنّك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبيّة". (تاريخ ابن خلدون ،١ / ١٩٩)

وقال إقبال:

نحنُ في الإسلام أبناءُ الخليل ... من أبيكم خذ إذا شئتَ الدليل

أممٌ قد عبَّدت أوطانها ... وبنتْ من نسبٍ بنيانها

أترى الأوطان أصلُ الأممِ ... تُعبد الأرض بها كالصنم

إنما الأنساب فخره السفهاء ... حكمها في الجسم والجسم هباء

ضمنا في الحق أسٌّ آخر ... هو في الألباب منا مُضمر

قد خلصنا من حدود وقيود ... قلبنا في الغيب إذ نحن شهود

ضَمَّنا كالزهر نظمٌ مُضمر ... بصرٌ ليس يراه مُبصر

وحّدَ الرئى لنا والفكرة ... كسهامٍ جمعتها جُعبة

نحن فكرٌ وخيالٌ واحدٌ ... ورجاءٌ ومآلٌ واحد

نحن من نعمائه حلفُ إخاءٍ ... قلبُنا والروحُ واللفظُ سواء

5 سنة المجاهدة

الوصف الذي يمكن أن يُطلق على سورة (العنكبوت)، ويكون مطابقاً لمحتواها تمام المطابقة، هو أنها سورة المجاهدة ... ذلك أنها منذ الآية الأولى فيها تتحدث عن تعرض الناس لفتنٍ وابتلاءات عدة حين يعلنون الإيمان، وما ذاك إلا لإظهار قدرتهم على الثبات على الإيمان من عدمه، ثم صقل هذا الثبات حتى يخرج معدنهم النفيس... وهو معدن الفطرة السليمة الصافية من كل غَبَشٍ يمكن أن يلوث هذا الإيمان أو يطمسه، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]، **وأن هذا الابتلاء سنةٌ ماضية في المؤمنين قبلهم لإظهار صدق إيمانهم من عدمه، قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣]، **وتقرر السورة أن هذه المجاهدة إنما هي للمجاهد نفسه ترفعه وتنجيه عند الله تعالى،** ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦].

أما الابتلاءات التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان، ويحتاج عندها إلى مجاهدة نفسه:

١- مجاهدة الأهل في محاولة صرف الانسان عن إيمانه، وإعادته إلى حياه التفلت والضياع، قال تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [العنكبوت:٨].

٢- التعرض لأذى المشركين، والمنافقين، والظلمة، لصرفه عن طريق الحق، يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١٠ _ ١١].

٣- التعرض للخداع، والمساومة لصرفه عن إيمانه واستقامته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢_١٣].

٤- التعرض للسخرية، والإهانات، والاستنقاص، وهذا ما تعرضه قصة نوح عليه السلام، ورغم ذلك يثبت

نوح عليه السلام على دعوته ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، رغم إعراض قومه، وأذاهم له وللمؤمنين معه حتى أنجاه الله وأصحاب السفينة، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ۝ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٤-١٥].

٥- التعرض للتهديد، وإنزال العذاب بالمؤمنين، والسجن، والقتل، والإحراق لهم، وهذا ما تعرضه قصة إبراهيم عليه السلام وهو يدعو قومه بعرض كل الحجج الدامغة لهم بأن ما هم فيه إنما هو شركٌ، وظلمٌ، ومعصيةٌ، لكنهم يُعرضون فيهدده أبوه بالسجن، ثم يأتيه قومه بالقتل أوالحرق، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤].

٦- إغراق المجتمع بالفواحش، والإصرار عليها كما فعل قوم لوط عليه السلام في إتيانهم الرجال ، والمحاولات المستمرة من لوط عليه السلام لإعادتهم إلى الله، وإخراجهم مما هم فيه من الفواحش بصبرٍ وجَلَد، فيعاندون وينقلون عمل الفواحش من السر إلى العلن في تجمعاتهم ونواديهم، وتهديد نبي الله لوط عليه السلام بإنزال الأذى به، أو إخراجه من بلده هو وأسرته ومن معه؛ لأنهم أناسٌ يتطهرون، وهذا من أخطر ما يواجهه المؤمن من مجتمعه بإعلان الفواحش، والدفاع عنها، وتحسينها، والدعوة إليها فيعيش هذا المؤمن خائفاً مرعوباً أنْ يسقط، أو أحدٌ ممن معه فيما سقط فيه قومه، لكن الله أرحم بعباده المؤمنين فيأتي الفرج للوط عليه السلام، وتخرجه الملائكة من هذا البلد الموبوء، وتُنزلَ العذاب على قومه، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، **وهي جرائم لم يسبقهم إليها أحدٌ قط، قال تعالى:** ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، **وتأتيه البشرى بالنجاح بعد دعائه لله عَزَّوَجَلَّ، وتكون العقوبة إنزال العذاب بالعصاة، وتكون العبرة واضحة لأهل العقول، قال تعالى:** ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝٣٠ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٢ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٣ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝٣٤ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٠-٣٥].

٧- ومن الفتن التي قد يتعرض لها الإنسان فتنة المال، والضرب في الأسواق يبيع ويشتري دون أن يكون له مبادئ وضوابط تحكم حركة التجارة في مجتمعه، فيفسد كما فسد قوم مدين بتطفيف الكيل وخسران الميزان دون وازعٍ من إيمان وفطرة، أواستجابة لتحذيرات نبيهم فيكون جزاؤهم العذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦_٣٧].

٨- القوة والجبروت التي اتصف بها قومُ عادٍ وثمود، وإعراضهم عن دعوة أنبيائهم، فلم يكن لهم من الله نجاة فأخذهم بكفرهم وجبروتهم، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٣٨].

٩- طغيان الحكم والمال، كما هي عند فرعون وقارون وهامان الذين استكبروا على دعوة الحق فأصابهم ما يصيب كل طاغية، ثم تجمل الآيات مصائر المكذبين، والعصاة، والظلمة، وأصحاب الفواحش بنهايات تتناسب مع معاصيهم بسبب السقوط في الاختبارات والابتلاءات، والإصرار على المعاصي، قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

هذه الأمثلة للمتساقطين أمام الافتتان بالثروة، والسلطة، والقوة، والطغيان، والفواحش تعرضها السورة على المجتمع الإسلامي ليتعلم منها ما يجعله قادراً على أن يعيش بالمال والسلطة والقوة دون أن يسقط في الاختبار لا خوفاً من عقاب الله، ولكن مجاهدة مستمرة في الترفع عن السقطات وصولاً إلى الفوز في الاختبارات والابتلاءات الدنيوية فيرضى الله عنهم ويرضيهم، ذلك أنهم تعلموا الدرس فاستعانوا بالله حين خاضوا في غمرات الحياة فأخذوا من حسناتها، وتجاوزوا سيئاتها، ومما ساعدهم على هذا الفوز _كما بينت السورة_ ما يلي:

١- إيمانهم بالله، واستجابتهم لدعوة نبيهم، واستقامتهم على طاعة الله تعالى فآوَوا إلى ركنٍ شديد.

٢- إيقاظ فطرتهم، وتصفيتها وصقلها نظيفة سليمة، وحمايتها من الدنس والموبقات.

٣- اتخاذهم لله تعالى ولياً من دون الناس، في الوقت الذي ذهب العصاة يوالون غير الله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ

الْعَنْكَبُـوتِ لَـوْ كَانُـوا يَعْلَمُـونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

٤- العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، وبمراده تبارك وتعالى ﴿وَتِلْـكَ الْأَمْثَـالُ نَضْرِبُهَـا لِلنَّـاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

٥- تلاوة الكتاب والذكر، وإقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿ اتْـلُ مَـا أُوحِيَ إِلَيْـكَ مِـنَ الْكِتَـابِ وَأَقِـمِ الصَّـلَاةَ إِنَّ الصَّـلَاةَ تَنْهَى عَـنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَلَذِكْـرُ اللهِ أَكْبَـرُ وَاللهُ يَعْلَـمُ مَـا تَصْنَعُـونَ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

٦- ترك الجدل إلا بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُـوا أَهْـلَ الْكِتَـابِ إِلَّا بِالَّتِـي هِـيَ أَحْسَـنُ﴾ [العنكبوت:٤٦].

٧- الإيمان بأن الرزق والأمن لا يكونان بالخضوع للطغيان والظلم، وإنما هما من الله تعالى يكتبهما لأهل الإيمان والاستقامة، قال تعالى:﴿ وَكَأَيِّـنْ مِـنْ دَابَّـةٍ لَا تَحْمِـلُ رِزْقَهَـا اللهُ يَرْزُقُهَـا وَإِيَّاكُـمْ وَهُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيـمُ﴾ [العنكبوت:٤٦]. **وقال تعالى:** ﴿ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِـعَةٌ فَإِيَّـايَ فَاعْبُـدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٧].

٨- العلم بحقيقه الدنيا من الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَـا هَـذِهِ الْحَيَـاةُ الدُّنْيَـا إِلَّا لَهْـوٌ وَلَعِـبٌ وَإِنَّ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ لَهِيَ الْحَيَـوَانُ لَـوْ كَانُـوا يَعْلَمُـونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

٩- مجاهدة النفس، والهوى، والناس، والفتن، والشهوات وصولاً إلى الهداية المرجوة، والإحسان المنجي، قال تعالى:﴿ وَالَّذِيـنَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَـعَ الْمُحْسِـنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

6 سنة الفرقان

القرآن الكريم فيه آية تعد أصلاً في هذا الباب ، هي قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾[سورة الأنفال: ٢٩]، **ويقول تعالى:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾[سورة الحديد: ٢٨]، **ومن هنا قال الإمام الغزالي﵀ : " تقوى الله تعني أن نوراً يقذفه الله في قلب المؤمن ، فيرى به الخير خيراً ، والشر شراً" .**

والفرقان رؤية قلبية وبصرية تجعل الإنسان يميز بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، ويقدر الإنسان على تحقيق هذه الرؤية، وتحويلها إلى قدرة سلوكية يومية بواسطة ما يكتسبه من تجاربه في حياته الشخصية، وتجارب ما يقرأه أو يسمعه من تجارب غيره من معايشيه، أو من سبقه من الناس لكن هذه التجارب لا تكون نتيجتها إيجابية دائماً فقد تؤثر فيها مصالحه الشخصية ومصالحه القومية والأسرية أو الطائفية والمناطقية، كما يؤثر فيها مزاجه الشخصي وأهواءه فتنحرف لديه هذه الملكة التمييزية، فكان لابد من مرتكزٍ ينطلق منه الإنسان لتتكون عنده هذه الملكة العظيمة ملكة الفرقان بين الأديان والأفكار والمبادئ والمعتقدات والأشخاص والهيئات والدول والأحزاب في أيها خير وأيها شر، وأيها خلطت بين الخير والشر؟.

والمنهج الوحيد الذي يمكن أن يكون هو الوسيلة لتحقيق هذا الفرقان هو الإسلام لا غيره، وأول ما يفعله المرء لتحقيق ذلك هو إيمانه الصحيح العميق بمعتقدات هذا الدين، والتزامه بأحكامه وأخلاقه ومسابقته لإرضاء ربه وصولاً لتحقيق التقوى في حياته، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، **وقال تعالى:** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال : ٢٩]**ويقول** عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨]،

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة : ٢] ، **ويقول تعالى :** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف:٢٠١]، **ويقول الله سبحانه:** ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. **ويقول سبحانه:** ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقد أوتي النبي الكريم ﷺ الفرقان الذي به تَجلَّت حكمته وحسن بصيرته في تعامله مع أصحابه ومراعاته لأحوال السائلين، يدلل على ذلك سؤال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ قائلا: " يا رسول الله! أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» ، فسكت عن رسول الله، ولو استزدته لزادني» رواه البخاري، **وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟" قال : لكن «أفضل الجهاد حج مبرور».** رواه البخاري

والقرآن الكريم كتاب فرقانٌ لمن قرأه، ووعاه، وآمن بما فيه، وعمل بتعاليمه، واستعان واستقام على أمره، ودعا غيره للاهتداء به، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] ، **وقد كانت حياه الرسول ﷺ وصحابته ومن جاء بعده مثالاً لهذا الفرقان حين كانوا يتلقون القرآن، ويعملون بتعاليمه فجعلهم الله سادة الأرض وقدوة متبعة إلى أبد الدهر.**

وسيرة الرسول الكريم ﷺ مثالٌ تطبيقٌ لهذا الفرقان، فعند بدء نزول الوحي عليه في غار حراء ذهل وفزع، وعندما عاد إلى زوجه خديجة رضي الله عنها، وأخبرها الخبر، وأنه خاف على نفسه، كان خبرها له فرقاناً، قائلة له: " كلَّا! والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدُقُ الحديثَ، وتَحمِل الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق". أخرجه الشيخان، واللفظ لمسلم.

وكما كان ابتداء الوحي، ونزول القرآن فرقاناً بين زمنين، وبين حياتين، وبين جيلين، كانت الهجرة كذلك، فهي فرقانٌ بين كل ذلك، بين مجتمعين متمايزين متفارقين هما: مجتمع الإسلام بما فيه من أحكام وواجبات وحقوق، وقيم، ومجتمع الشرك بكل ما فيه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾ [الأنفال: ٧٢]، **فكان المسلم المهاجر يرث المهاجر دون قريبه الذي لم يهاجر.**

وكانت معركه بدر فرقاناً بين زمن القوة وزمن الاستضعاف، قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩]، **وقال تعالى:** ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، **بل فرقاناً بين رغائب المسلمين ونواياهم، كما قال تعالى:** ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال:٥ـ٧].، **ثم كانت غزوة الخندق بما رافقها من مخاوف فرقاناً آخر بين زمنين،« الآنَ نَغْزُوهُمْ ولَا يَغْزُونَنَا»** البخاري.، **ثم كانت بيعة الحديبية فرقاناً لإعلان الرضا التام عن المؤمنين، الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ مبايعين على الموت في سبيل الله وعدم الفرار، ليكون الترضي عليهم بعد ذلك من باقي المؤمنين على مدى الدهر فرقاناً بين من صدق في إيمانه وثباته، ومن غالط وادعى، قال تعالى:** ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

وَكانت حياة النَّبِيّ ﷺ فُرْقَانًا بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ فَرَّق بَيْنَ المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ؛ وَلِذَا قَالَت المَلَائِكَةُ فِيهِ: «ومُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ »، وَفِي لَفْظٍ: «فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ، **وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَارِقٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ.، وكذلك كانت وفاته ﷺ فرقاناً بين من يثبت على الحق من المؤمنين الصادقين، ومن ينقلب على عقبيه، قال تعالى:** ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وتبقى هذه المعالم: القرآن، والهجرة، والجهاد، فرقاناً في التمييز بين أهل الحق، وأهل الباطل على مدى الأيام وتتابعها، فعندما سُئل الإمام الشافعي رحمه الله: كيف تعرف أهل الحق في زمن الفتن فقال: " اتبع سهام العدو فهي ترشدك إليهم "، ــ وينسب مثل هذا القول إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وإلى ابن تيمية رحمه الله، وهو مصداقٌ لقوله ﷺ: «لا تَزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي على الدِّينِ ظاهرينَ لعَدوِّهم قاهرينَ، لا يَضُرُّهم مَن خالَفَهم، إلَّا ما أصابَهم مِن لَأواءَ حتى يَأتيَهم أمْرُ اللهِ وهم كذلك، قالوا: يا رسولَ اللهِ، وأين هم؟ قال: ببَيتِ المَقدِسِ وأكنافِ بَيتِ المَقدِسِ» رواه أحمد.

والحديث فيه دلالةٌ على أن الحقَّ لا ينقطعُ في أمةِ الإسلامِ؛ فهناك من يَتوارَثُه جيلًا بعد جيلٍ، كما فيه إشارةٌ إلى بَقاءِ نَصرِ اللهِ لهم وحفظه

سنة الأمن الجغرافي

يقول ابن خلدون﵀ فيما تجب مُراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن المراعاة: " اعلم أنّ المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من التّرف ودواعيه، فتؤثر الدّعة والسّكون وتتوجّه إلى اتّخاذ المنازل للقرار، ولمّا كان ذلك القرار والمأوى وجب أن يُراعى فيه دفع المضارّ بالحماية من طوارقها[الغزاة] وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها، فأمّا الحماية من المضارّ فيراعى لها أن يُدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في متمنّع من الأمكنة إمّا على هضبة متوعّرة من الجبل، وإمّا باستدارة بحرٍ أو نهرٍ بها حتّى لا يوصل إليها إلّا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدوّ ويتضاعف امتناعها وحصنها، وممّا يراعى في ذلك للحماية من الآفات السّماويّة طيب الهواء للسّلامة من الأمراض، فإنّ الهواء إذا كان راكدًا خبيثًا أو مجاورًا للمياه الفاسدة، أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، وهذا مشاهد، والمدن الّتي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب" (المقدمة، ٣٢٤_٣٢٥).

قال سبحانه وتعالى عن لوط﵇: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] ، **وقال تعالى عن شعيب﵇**: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود : ٩١]، **وقال الله تعالى عن قريش:** ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧].، **وقال تعالى عن المؤمنين :** ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال : ٢٦]

روى البخاري في صحيحه أن رسول اللهﷺ قال: « إنَّ إبْراهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ودَعا لَها، وحَرَّمْتُ المَدِينَةَ كما حَرَّمَ إبْراهِيمُ مَكَّةَ »، وقال سهل بن حنيف ﵁: " أَهْوَى رَسولُ اللهِ ﷺ بيَدِهِ إلى المَدِينَةِ، فَقالَ: «إنَّهَا حَرَمٌ آمِنٌ » " رواه مسلم، **وحين عَرضَ نفسهﷺ على القبائل إلى أن انتهى الى ربيعة وإلى ذهل بن شيبان، فكلمَهم وتلا عليهم القرآن، فقالوا: إنَّا على هذا الماء من ذي قار، وقد أخذ علينا كسرى ألا نُحْدث حدثًا، ولا نؤوي محدثًا، وهذا الذي أتيت به ودعوت إليه تكرهه الملوك، فإن**

شئت أن نُجيركَ إلا من الملوك فعلنا، فقال ﷺ: «ما أسأتم بالرد إذ أفصحتم بالصدق، إن هذا الدين لا يكون من أهله إلا من حاطه من جميع جوانبه». (تثبيت دلائل النبوة ،١ / ٢٢)

وفي بيعة العقبة قال العباس بن عبد المطلب ﷺ للأوس والخزرج: "إنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ومَنَعة فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الِانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنتُمْ تَرَوْن أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنتُمْ تَرَوْن أَنَّكُمْ مُسْلِموه وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنْ الْآنَ فدَعَوْه، فَإِنَّهُ فِي عِز ومَنَعة مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتُ فتكلمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فخذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتُ.. فَتَكَلَّمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلَا القرآنَ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ورغَّب فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نساءَكم وأبناءَكم»، قَالَ: فَأَخَذَ البَراء بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ" (سيرة ابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد ،٢ / ٦٣)

يقول ابن خلدون رحمه الله : " وأمّا جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرّة فإنّ وجود الماء قريبًا من البلد يسهّل على السّاكن حاجة الماء وهي ضروريّة، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامّة، وممّا يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم، وممّا يراعى أيضًا المزارع فإنّ الزّروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتّخاذه وأقرب في تحصيله، وقد يراعى أيضًا قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النّائية إلّا أنّ ذلك ليس بمثابة الأوّل وهذه كلّها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو إليه ضرورة السّاكن، وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطّبيعيّ، أو إنّما يراعي ما هو أهمّ على نفسه وقومه، .... وممّا يراعى في البلاد السّاحليّة الّتي على البحر أن تكون في جبل، أو تكون بين أمّة من الأمم موفورة العدد تكون صريخًا للمدينة متى طرقها طارق من العدوّ، والسّبب في ذلك أنّ المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمرانٌ للقبائل أهل العصبيّات ولا موضعها متوعّر من الجبل، كانت في غرّة للبيات وسهل طروقها في الأساطيل البحريّة على عدوّها وتحيّفه لها لما يأمن من وجود الصّريخ لها... ومتى كانت القبائل والعصائب موطّنين بقربها بحيث يبلغهم الصّريخ والنّعير، وكانت متوعّرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها، كان لها بذلك منعة من العدوّ ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقّعونه من إجابة صريخها ". (المقدمة، ٣٢٤_٣٢٧)

وأورد رشيد رضا﵀ في تفسيره (٤ /٦٧): " قالوا: تُصان البلاد ويُحرس الملك بالبروج المشيدة، والقلاع المنيعة، والجيوش العاملة، والأُهُب [العُدَّة] الوافرة، والأسلحة الجيدة، قلنا: نعم، هي أحرازٌ وآلاتٌ لا بد منها للعمل فيما يقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أنْ يتناول أعمالَها رجالٌ ذوو خبرة، وأولو رأي وحكمة، يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدتْ له زمن الحرب "، وليس بكافٍ حتى يكون رجالٌ من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدَّراية يقومون على سائر شؤون المملكة، يوطئون طريق الأمن، ويبسطون بساط الراحة، ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل، ويُوقفون الرعية عند حدود الشريعة، ثم يُراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلةَ التي تليق بها بينها، بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانةٍ تمكن لها.

وأورد الماوردي ﵀ في تفسيره(٣/١٩٩) لقول الله تعالى :﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ فذكر بيوتها لما ألهمها وأودعه في غرائزها من صحة القسمة وحسن المنعة.

ويقول مجدي حسين في دراسته (المستطيل القرآني): " سنجد الأسماء (أسماء الأماكن) التي ذكرت في القرآن الكريم محصورة جغرافياً فيما نسميه الجانب الآسيوي من الوطن العربي و مصر، وهو ما يمكن أن نسميه (المستطيل القرآني)، أو ما يسميه العالم الآن خاصة العالم الغربي بـ(الشرق الأوسط).

وسنرى أن كل مسرح الأحداث القرآني، كل قصص الأنبياء وغير الأنبياء، كل الأماكن، داخل هذه الخريطة القرآنية، ثم سنكتشف أن هذا المسرح هو هو.. منذ فجر التاريخ وحتى الآن، فلا تزال خريطة (الشرق الأوسط) هي مسرح الأحداث الأساسية في العالم، أو محور الصراع العالمي". فالجغرافيا كما يقول الدكتور جمال حمدان﵀ ،هي: " تلك التي إذا عرفتها عرفت كل شيءٍ عن نمط الحياة في هذا المكان أو ذاك"، وتأمين هذه الجغرافيا معيارٌ لتقدم الشعوب والدول والحضارات، وفهم ما يجري عليها، وقد بدأ روبرت كوبلان كتابه (انتقام الجغرافيا) بقوله : " ثمَّة مكانٌ جيد لفهم الحاضر، ولطرح الأسئلة حول المستقبل، وهو أديم الأرض مع السفر فوقها بأبطأ ما يمكن"، مشيرًا لأهمية الجغرافيا في فهم الإنسان للصراعات الماضية والحاضرة، وضرورة سعيه لرسم أكثر من سيناريو مستقبلي للتفوق فيها أو تفاديها.

8 سنة التدافع

إن دوام صلاح الأرض والعمران، ودوام عافية الاجتماع البشري، وصمام أمان الحريات الدينية والفكرية مرهون باستمرار حالة التدافع داخل المجتمعات من خلال القوى الحية والفاعلة، وأن توقف حالة المدافعة نذير بتفشي الفساد وتكلُّس المجتمعات ومن ثم سقوطها لحساب مجتمعات أخرى، كما أن الله سبحانه وتعالى يخلق بالتدافع بين قوى الشر فرصة لتخلق قوى قائمة بالحق والقسط، ولتمكين المستضعفين، ووسيلة لبقاء الأصلح في الأرض.

وهذه السنة مرتبط بسنتي التداول والتغيير، فهي تمثل خطوة أساسية في طريق النهوض للأمة وانتقال الدولة إليها في قيادة الأمم، كما أنها خطوة قائمة على التغيير الداخلي للأمم والشعوب والدول قبل مدافعتها للقوى المستكبرة في الأرض، فالأمم والقوى العاجزة عن التغيير العقلي والنفسي والسلوكي في بنيتها الداخلية ستكون أكثر عجزاً في مدافعة غيرها، وبالتالي عاجزة عن الانتصاف لنفسها في حال الهزيمة أو النهضة من كبوتها في لحظة التعثر.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، **وقال تعالى:** ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، **وقال تعالى:** ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، **وقال تعالى:** ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، **وقال تعالى:** ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، **وقال تعالى:** ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]

عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا

اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا» صحيح البخاري (٣ / ١٣٩)، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥١]، قَالَ: " يَدْفَعُ اللهُ بِمَنْ يُصَلِّي عَمَّنْ لَا يُصَلِّي، وَبِمَنْ يَحُجُّ عَمَّنْ لَا يَحُجُّ، وَبِمَنْ يُزَكِّي عَمَّنْ لَا يُزَكِّي "، قُلْتُ: " وَهَذَا يَكُونُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ، وَقَدْ يَدَعُهُمْ فَيَهْلَكُوا جَمِيعًا إِذَا كَثُرَ الْفَسَادُ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ" (شعب الإيمان ،١٠ / ٧٥)

وورد في الأثر "إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَيَدْفَعُ بِالمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِئَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِهِ البَلاَءَ» ، ثم قرأ ابنُ عمر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ .(المعجم الكبير للطبراني جـ ١٣، ١٤ (ص: ٢١٥) ، ويقول الطبري ﷺ: "ولولا أن الله يدفع ببعض الناس، وهم أهل الطاعة له، والإيمان به، بعضا ، وهم أهل المعصية لله، والشرك به ... لفسدت الأرض، ولهلك أهلها، بعقوبة الله إياهم، ولكن الله ذو مَنٍّ على خلقه، وتطوُّل عليهم، بدفعه البر من خلقه عن الفاجر، وبالمطيع عن العاصي، وبالمؤمن عن الكافر. فيدفع الله معالجة أهل الكفر والنفاق، العقوبة على كفرهم ونفاقهم، بإيمان المؤمنين به، وبرسوله، الذين هم أهل البصائر والجد في أمر الله، وذوو اليقين بإنجاز الله إياهم وعده، على جهاد أعدائه، وأعداء رسوله، من النصر العاجل، والفوز الآجل بجنانه تبارك وتعالى" . (جامع البيان في تأويل القرآن، ٢/٦٤٦).

ويقول ابن تيمية ﷺ: " يَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِينَ الْكُفَّارَ وَيَدْفَعُ شَرَّ الطَّائِفَتَيْنِ بِخَيْرِهِمَا كَمَا دَفَعَ الْمَجُوسَ بِالرُّومِ النَّصَارَى ثُمَّ دَفَعَ النَّصَارَى بِالْمُؤْمِنِينَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾" الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٢ / ٢١٦) ويقول الإمام المناوي ﷺ: " فَيَدْفَع بالذاكر مِنْهُم عَن الغافلين وبالمصلي عَن غير الْمُصَلِّين وبالصائم عَن غير الصائمين كهمج وذباب اجْتَمعْنَ على مزبلة وكناسة فَعمد رجل إِلَى مكنسة كنسه بهَا وَيظْهر أَن الْمِائَة للتكثير لَا للتحديد" (التيسير بشرح الجامع الصغير ،١ / ٢٦١)

. يقول الدكتور جاسم سلطان: " قضية التدافع – كما يشير القرآن الكريم – كانت ولا زالت وستكون هي جوهر الوجود البشري، فالوجود البشري قائم على هذا التضاد، وعلى هذا التدافع المستمر لخلق الله على أرضه، فالبشرية تدعو إلى السلام والأمن، بينما في الواقع يطغى الناس بعضهم على بعض، وتستمر عملية التدافع إلى أن يشاء الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فقانون التدافع

يخبرنا بأنه لا مفر من عملية التدافع المستمرة في السلم والحرب، فهي حالة دائمة ومستمرة لا يجوز تجاهلها أو الأمل في زوالها" (قوانين النهضة صـ١٤٦).

وقال الدكتور حمدي شعيب:" وهي السنَّة الإلهية الاجتماعية التي تبين إرادة الحق سبحانه في أن يستمر الصراع والتنافس والتدافع، سواء كان فردياً أو جماعياً، بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الإيمان وأهله والكفر وأهله، ما دامت السماوات والأرض؛ وذلك حتى تتم عملية انتقائية لتفرز الأصوب والأبقى والأصلح في كل شيء، سواء كانت أفكاراً أو آراء أو أفراداً أو أمماً، فإذا توقفت تلك العملية التدافعية الحضارية المختلفة الصور كان الفساد في الأرض" (مجلة البيان ،ع١٩٢ ، ٢٤)

ويقول الدكتور عبد العزيز كامل: " إن الآية ﴿وَلَـوْلاَ دَفْـعُ اللَّهِ النَّـاسَ﴾ جاءت تعقيباً على قصة انتصار التوحيد بقيادة طالوت وداود، على الشرك والوثنية بقيادة جالوت؛ لتبين أنه لولا مثل هذا الدفع لفسدت الأرض بشرك أمثال جالوت، عندما تعلو كلمتهم على منهج الإيمان والتوحيد الذي جاء به أنبياء كداود عليه السلام . والآية الثانية – آية الحج – وهي أول آية نزلت في القتال؛ جاءت بالإذن للمسلمين في قتال أهل الشرك من قريش؛ لما بالغوا في إيذاء المسلمين لفتنتهم عن دينهم وإعادتهم إلى الشرك، وبينت الآية أنه لولا هذا الأذن بمثل ذلك الدفع في كل زمان لفسدت الأديان كلها، وظهر الشرك وأهله على الإيمان وأهله، ولهدمت الصوامع في ديانة موسى عليه السلام، والبِيَع والصلوات في ديانة عيسى عليه السلام، والمساجد في ديانة محمد ﷺ وعلى الرسل أجمعين، فتاريخ البشرية يحكي هذا التدافع الذي ينتج عنه فرض صاحب القوة لفكرته مهما كانت كاسدة، وفاسدة مفسدة، على المغلوب مهما كانت عقيدة راجحة، صالحة ومصلحة" مجلة البيان (١٩٤ / ١٨) ، وقال أيضا: " ولكن الصراعات تكون أيضاً بين باطل وباطل، وقد يكون ذلك خيراً لأهل الإيمان، كما كان الصراع بين الفرس والروم، حيث أنْهَك كلٌ منهما الآخر، لتَسهُل المهمة بعد ذلك على عباد الله الموحدين في الانتصار عليهما". (مجلة البيان ،٢٣٨ / ١٤)

ويقول الدكتور عماد الدين خليل: "على عالم الإسلام اليوم ألا تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرد الأمريكي إلى مدى بعيد ، وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض مستفيداً من حالة الثنائيات الغربية المتولدة باستمرار من الثغرات والممرات التي تفتحها في جدار الغالب ، وقبل هذا من قدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية والفكرية والاستراتيجية والاقتصادية ، والحضارية في نهاية الأمر" (دراسات في السيرة والتاريخ القرآن الكريم وسنن الله في التاريخ، صـ٦). ويقول أيضًا: " إن تنوع التاريخ واستعصائه على المسطرة يجعل من النظام ذي القطبية الواحدة حالة استثنائية لن تدوم طويلاً؛ فعلى مدى التاريخ

البشري كانت دائماً هناك روما بمواجهة أثينا ، والبابوية بمواجهة القسطنطينية ، والرومانية المقدسة بمواجهة البابا ، وفرنسا بمواجهة بريطانيا و ألمانيا و روسيا ، وبريطانيا بمواجهة القارة ، والمحور بمواجهة المستعمرين القدماء، و أمريكا بمواجهة بريطانيا، والاتحاد السوفييتي ومن بعده أوروبا الغربية بمواجهة أمريكا، ومعنى هذا أن تفرد قوة غربية واحدة بالسلطان أمر يكاد يكون مستحيلاً على الفترات الزمنية الطويلة نسبياً" (دراسات في السيرة والتاريخ القرآن الكريم وسنن الله في التاريخ، صـ٦).

يقول أبو مسلم العماني : ومن سنن اللّه التدافع بيننا ليصلح مدفوع ويصلح دافع

وقال الدكتور عبد الغني التميمي:

أعيرونا مدافعكم ليوم.. لا مدامعكم. ...

أعيرونا وظلوا في مواقعكم. ...

ألسنا إخوة في الدين قد كنا.. وما زلنا. ...

فهل هنتم وهل هُنَّا؟ ! ...

أيعجبكم إذا ضعنا. ...

أيسعدكم إذا جعنا. ...

وما معنى قلوبكم معنا؟ ...

رأينا الدمع لا يشفي لنا صدراً. ...

ولا يبري لنا جرحاً. ...

أعيرونا رصاصاً يخرق الأجساد. ...

لا نحتاج لا رزاً ولا قمحاً. ...

أعيرونا وخلوا الشجب واستحيوا. ...

سئمنا الشجب والردحا.

9 سنة العداوة

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، **قال ابن عاشور** رحمه الله: **"بَعْدَ ذِكْرِ مَا يُحْزِنُهُ ﷺ مِنْ أَحْوَالِ كُفَّارِ قَوْمِهِ، وَتَصَلُّبِهِمْ فِي نَبْذِ دَعْوَتِهِ، أَنْبَأَهُ اللَّهُ: بِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَعْدَاؤُهُ، وَأَنَّ عَدَاوَةَ أَمْثَالِهِمْ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ابْتِلَاءِ أَنْبِيَائِهِ كُلِّهِمْ، فَمَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ أَعْدَاءٌ، فَلَمْ تَكُنْ عَدَاوَةُ هَؤُلَاءِ لِلنَّبِيءِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِدْعًا مِنْ شَأْنِ الرُّسُلِ"**. (التحرير والتنوير)

وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، **وقال تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، **وقال تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢]، **وكان من حوار موسى** عليه السلام **مع بني إسرائيل:** ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، **وقال لمحمد** ﷺ **وصحبه في صراعه مع المشركين:** (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ) [محمد : ٤]، **وقال تعالى لمحمد وصحبه:** ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، **وقال عن يوم الأحزاب:** ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

و أخبر الله عن شدة عداوة الكفار للمسلمين بقوله : ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[البقرة:١٠٥]، **وقال تعالى:** ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾ [التوبة:٨].

وفي حديث بداية نزول الوحي عن عائشة ﵂ قالت: "فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، قَالَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَآهُ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ﷺ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا " صحيح مسلم (١ / ١٤١).

يقول الدكتور محمد إبراهيم التويجري في كتابه (أصول الدين الإسلامي): " عداوة الكفار من أهل الكتاب، والمشركين ، والمنافقين للمؤمنين قائمة إلى أن تقوم الساعة، وصراع الحق والباطل باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما قال سبحانه: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [البقرة : ٢١٧]"

ولمَا كان الإسلام يحكم المؤمنين بالعدل ويعطي كل ذي حق حقه، وهم لا يريدون ذلك، لذلك اجتهدوا في محاربة الدين ورد الحق بالباطل، ولكن هيهات. فالدين باق والله متم نوره ولو كره الكافرون، قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره الكافرون﴿٧﴾ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ [الصف:٧]، **إن الكفار يريدون أن تقف أمم الأرض في الكفر صفاً واحداً:** ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ [النساء :٨٩]، **والذين كفروا ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله، في كل زمان ومكان، لنشر الفساد وإشعال الحروب وقتل المؤمنين، ويأبى الله إلا أن يخذلهم وينصر دينه كما قال سبحانه:** ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ [الأنفال: ٣٦]»

يقول الدكتور صلاح الخالدي في كتابه (مفاتيح التعامل مع القرآن): " وقوله تعالى عن عداوة الكافرين للمؤمنين وعن هدفهم من حربهم ﴿وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، **ليس خاصًا بحرب قريش لرسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة– وإن كانت نزلت بهذه المناسبة– ولكنها تتحدث عن هدف عام للكفار أينما كانوا، في**

حربهم للمسلمين حيثما وجدوا .. هذه الآية تنطبق على حرب الرومان للمسلمين وحرب الفرس والصينيين والهنود والمغول والصليبيين والأوروبيين في القرون الوسطى، والروس القياصرة والروس البلاشفة لهم، وعلى حرب الإنجليز والمستعمرين المعاصرين، وعلى حرب الأمريكيين والشيوعيين واليهود والنصارى والباطنيين للمسلمين في هذه الأيام، وستبقى تعطى دلالاتها وتنطبق على أية حرب بين المسلمين والكفار حتى قيام الساعة". (مفاتيح التعامل مع القرآن، ١٢٠)

10 سنة الابتلاء

تقول كريمة بلعربي: " تمثل سنّة الابتلاء سنّة اجتماعية تاريخية، وتكتسي سنّة الابتلاء والتمكين أهمية عظمى في القرآن، بكونها سنّة كونية اجتماعية، فهي توجّه الإنسان وتهديه إلى الطريق المستقيم، وعلى إثر ذلك فإنّ الابتلاء سنّة الله في تدبير ملكوته، ولن ينجو منها أحد، وإنّ هذا الابتلاء يترتّب عنه التمكين باعتباره وَعْدَ الله المحقَّق وقضاءَه وحكمته ومشيئته الربانية.

وينتج عن سنّة الابتلاء غايات ومقاصد عظيمة، تتوخَّى بثّ الطمأنينة والأمن الروحي، وتجنّب الإنسانية من الأزمات والإصابات، والعجز والركود، وتحصيل الوقاية والشهود الحضاري، وفهم حركة التاريخ وتفسير الظواهر الاجتماعية، وإبصار الماضي وتصويب الحاضر، وحسن النظر والتقدير لأبعاد المستقبل وإدراك المقاصد وإبصار المخارج، وتحصيل المؤهلات وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية والتي تسعى إلى تزكية النفس، وتربيتها وتمحيصها وتنقيتها بعد الابتلاء، وتجعل للعبد قوةً في الشخصية، وعبوديةً لله، وإدراكًا لمعرفة الله وتعظيم قدره، ويهتدي بها المسلم قصد الإنابة والرجوع لله وتصحيح مساره، ومحو الذنوب ورفع الدرجات، وتمحيص القلوب وتهذيب الروح وشكر الله على النعم، والإيمان بالقضاء".

يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٥]، **ويقول** عَزَّوَجَلَّ:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ [الكهف: ٧، ٨]، **ويقول تبارك وتعالى:**﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة : ٤٨]، **ويقول سبحانه:** ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٦٥]، **وقال تعالى :** ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، **وقال سبحانه:** ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد:٣١]، **وفي قصة طالوت، قال** عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ

قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

ويقول الله تعالى في بيان أن الابتلاء سنة في حياة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وحياة المؤمنين: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام:٣٤]، **وقال تعالى:** ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾[العنكبوت: ٢ : ٣].

عنْ أبي عبدِاللَّهِ خَبَّابِ بْن الأَرتِّ ﷺ قَالَ: " شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: « قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» "، وروى سعد بن أبي وقاص ﷺ، قلتُ: " يا رسولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟، قالَ: «الأَنبياءُ، ثمَّ الأَمثلُ فالأَمثلُ ؛ يُبتلَى الرَّجلُ علَى حسَبِ دينِهِ ، فإن كانَ في دينِهِ صلبًا اشتدَّ بلاؤُهُ ، وإن كانَ في دينِهِ رقَّةٌ ابتليَ علَى قدرِ دينِهِ ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يترُكَهُ يمشي علَى الأرضِ وما علَيهِ خطيئةٌ ». رواه الترمذي.

وعن عروة بن الزبير ﷺ قال: " سألت ابن عمرو بن العاص ﷺ: أخبرني بأشد شيءٍ صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حِجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟» " رواه البخاري .

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان ﷺ: " قد مضَت سنّة الله في الابتلاء أنه يبتلي عباده بالشر والخير، أي: يختبرهم بما يصيبهم مما يثقل عليهم كالمرض والفقر، كما يختبرهم بما ينعم عليهم من النعمة المختلفة، التي تجعل حياتهم في رفاهية ورخاء وسعة العيش؛ ليتبين في هذا الامتحان من يصبر في حالة الشدة، ومن يشكر في حالة الرخاء والنعمة" ، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ **[الأنبياء: ٣٥]** (السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ٨١، ٨٢).

وقال القرطبي رحمه الله: " البلاء يكون حسنًا، ويكون سيِّئًا، وأصله المحنة، والله عَزَّوَجَلَّ يبلو عَبْدَه بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها ليمتحن صبره، فقيل للحسن: بلاء، وللسيئ: بلاء" (الجامع لأحكام القرآن ، ٢٦٣/١).

ويقول الدكتور محمد السيد محمد يوسف: " فإن سنّة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات، والأمة الإسلامية أمّة من الأمم، فسنّة الله تعالى فيها جارية لا تتبدل ولا تتغير، إنّ الابتلاء سنّة الله العامة في الحياة والأحياء، وسنّته تعالى في الرسل والرسالات، ورسول الله ﷺ ليس بدعًا من الرسل، فكان لا بد أن تجري عليه سنّة الابتلاء كما جرت على إخوانه المرسلين".

(التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ٢٤٠، ٢٤١).

يقول مولود الرحالي:" من قبل بعثته ﷺ ، ابتلي كل الأنبياء والمرسلين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[الأنعام:٤٢]، ابتُليَ آدم عليه السلام فأكل من الشجرة بعدما أغواه الشيطان، و ابتُليَ نوح عليه السلام حتى هجره أقرب أقربائه، لبث فيهم ما يربو على الألف سنة، يدع وينوع أساليب التبليغ، لكن قومه سخطوا واستعجلوا العقوبة فأغرقهم الله، و ابتُليَ يونس عليه السلام فلم ينس ربه وهو في بطن الحوت، و ابتُليَ أيوب عليه السلام في جسده فجعله الله عَلَمًا لطمأنة المصابين، و ابتُليَ إبراهيم عليه السلام بأمر ربه أن يذبح ولده، فلبى وفاز في الابتلاء، وجعله الله قدوة المستجيبين، و ابتُليَ لوط عليه السلام بقوم يكرهون الطيبات ويعشقون الخبائث، فآواه الله إلى ركنٍ شديد بعد طول دعاء، و ابتُليَ موسى عليه السلام، بالرسالة أولًا، وهو ذو لسان لا يبين، و ابتُليَ ثانية بإرساله إلى فرعون، فاستجاب وصبر حتى جعله الله سببًا لهداية السحرة من أتباع فرعون... هذه نماذج من أعلى هرم الشرف والنبوة، جعلها الله بياناً لسنته في خلقه" .

والابتلاء طريقٌ للتمكين، "سُئل الشافعي: أيما أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكَّن حتى يبتلى، والله عَزَّوَجَلَّ ابتلى أولي العزم من رُسُله، فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظنَّ أحد أنه يَخْلُص من الألم البتة، وإنما تفاوَت أهلُ الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألمًا مستمرًّا عظيمًا بألمٍ منقطع يسير، وأسْفَهُهم من باع الألمَ المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمر". (زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية،١٧/٣)

سنة التمحيص

يقول الدكتور محمد أمحزون "ومن النتائج المترتبة على سنة الابتلاء لاحقاً : سنة التمحيص ، فالمؤمن من جهة يتعرض للمحنة ، فيُصقل معدنه من أثرها ، وينضج بها كما ينضج الطعام بالنار ، والمنافق من جهة ثانية لا يستطيع الصمود أمام الفتنة فتخور قواه وتنحل عراه وينكص على عقبيه ؛ ولهذا جعل الله تعالى التمحيص مَعْبراً لتنقية الصف المؤمن من أدعياء الإيمان ، فيقع به التمييز بين الدر الثمين والخرز الخسيس" (السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول،١/٣٨١_٣٨٢)

يقول سيد قطب﵀ في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾، **" والتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز، التمحيص عمليةٌ تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير . . إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية، وتسليط الضوء على هذه المكنونات، تمهيدًا لإخراج الدَّخَل والدَّغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق ، بلا غَبَشٍ ولا ضباب . . وفي هذا التمحيص الذي يتولاه الله – سبحانه – بمداولة الأيام بين الناس بين الشدة والرخاء، يعلم المؤمنون من أنفسهم ما لم يكونوا يعلمونه قبل هذا المحك المرير: محك الأحداث والتجارب والمواقف العملية الواقعية ... والله – سبحانه – كان يربي هذه الجماعة المختارة لقيادة البشرية، وكان يريد بها أمرًا في هذه الأرض؛ فمحصها هذا التمحيص ، الذي تكشَّفت عنه الأحداث في معركة (أُحد)، لترتفع إلى مستوى الدور المقدر لها ، وليتحقق على يديها قدر الله الذي ناطه بها: (ويمحق الكافرين) "** (في ظلال القرآن، ٤٨٢ وما بعدها).

قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤]، **وقال تعالى:** ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤١_١٤٢]، **وقال تعالى:** ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠]

ويقول صاحب الظلال﵀ : "ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله ـ سبحانه ـ وليس من مقتضى ألوهيته، وليس من فعل سنته، أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان، ومظهر الإسلام، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان، ومن روح

الإسلام؛ فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دوراً كونياً كبيراً، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، ولتنشئ في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك، ويقتضي ألا يكون في الصف خلل، ولا في بنائه دَخَل، وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض، وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة، وكل هذا يقتضي أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة، وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر، ومن ثم كان شأن الله سبحانه أن يميز الخبيث من الطيب ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة».

ورد في تفسير (الجلالين) لقول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمحَقَ ٱلكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، " **يطهرهم من الذنوب بما يصيبهم** ﴿ويمحق﴾ **يهلك** ﴿الكافرين﴾ "، **ويقول السعدي في تفسيره : "ومن الحكم أن الله يُمحص المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، كما يدل على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحص الله _أيضًا_ المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق، ومن الحكم _أيضًا_ أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سببًا لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم، يستحقون به المعاجلة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين".**

والتمحيص هو التهذيب والتنقية، وهذا نجاحٌ في الابتلاء: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، **فإذا حصل الابتلاء وقوبل بالصبر تحققت النتيجة، وحصل التمحيص والتطهير والتنقية، وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غزوة أحد حصولًا عظيمًا، كما في ذلك الموقف الذي قيل فيه للمؤمنين:** ﴿إِنَّ النَّاسَ يعني المشركين: قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ *فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤- ١٧٣]، **ورجع العدو ولم تحصل مواجهة جديدة.**

يقول ابن القيم﵀ في كتابه (مدارج السالكين: ٢١٧/١): " وهذا التّمحيص يكون في دار الدُّنيا بأربعة أشياء: بالتّوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفّرة. فإن محَّصَتْه هذه الأربعةُ وخلَّصَتْه كان من ﴿تتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾، **يبشّرونهم بالجنّة، وكان من الذين تتنزَّل عليهم الملائكةُ عند الموت** ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢] . **وإن لم تَفِ هذه الأربعةُ بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التّوبة نصوحًا _ وهي العامَّة الشَّاملة الصَّادقة _ ولم يكن الاستغفار كاملًا تامًّا".**

يقول الشعراوي ﷺ : " **والتمحيص يختلف عن المحْق، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة، أما المحق فهو الذهاب بها كلها**﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:١٤١] ".

أما الفيروزآبادي ﷺ، **فيرى التمحيص في الآية: "كالتزكية والتطهير ونحو ذلك من الألفاظ، ويُقال في الدعاء : «اللهم مخِّص عنَّا ذنوبنا»، أَي أَزِلْ ما علِق بنا من الذنوب. وإِذا أَصابهم مرض قالوا: اللهم اجعله تمحيصاً لا تبغيضاً، وأَدباً لا غضباً"** (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ٤٨٦/٤).

12 سنة التمييز

يقول صاحب الظلال﵀ : " ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله سبحانه وليس من مقتضى ألوهيته ، وليس من فعل سنته ، أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز ، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان ، مظهر الإسلام ، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان ، ومن روح الإسلام ؛ فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دوراً كونياً كبيراً ، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً ، لتنشئ في الأرض واقعاً فريداً ، ونظاماً جديداً ، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك ، ويقتضي ألا يكون في الصف خلل ، ولا في بنائه دَخَل وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض ، وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة ، وكل هذا يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث ، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة ، وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر ، ومن ثم كان شأن الله سبحانه أن يميز الخبيث من الطيب ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة ". (في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١/٥٢٥).

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٧٩]، **وقال تعالى:** ﴿لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٧]، **وقال تعالى:** ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت : ٣]، **وقال تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة: ٢٤٦]، **وقال تعالى:** ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩]، **ويقول تعالى في تمييزه للمؤمنين عن المنافقين:** ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١]، ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩]

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى: "أي لا بد أن يعقد الله سبباً من المحنة يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر ". ويقول صاحب الظلال رحمه الله : " ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله سبحانه وليس من مقتضى ألوهيته، وليس من فعل سنته، أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان، مظهر الإسلام، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان، ومن روح الإسلام ؛ فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دوراً كونياً كبيراً ، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، لتنشئ في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك، ويقتضي ألا يكون في الصف خلل، ولا في بنائه دَخَل وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض، وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة، وكل هذا يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث ، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة، وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر، ومن ثم كان شأن الله سبحانه أن يميز الخبيث من الطيب ولم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة ". (في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥٢٥/١)

سنة الزلزلة

تتحدث هذه السطور، عما يتعرض له الإنسان من شدةٍ و بلاءٍ، و مشاقٍ و صعابٍ، تواجهه في مسيرة حياته الدنيوية، و مهامه العملية، و الرسالية، فتضغط بالشدائد عليه، و تتزلزل لها قواه، و يخور أمامها عزمه، و يتناوشه اليأس، من كل جانب، و يحيط به الإحباط الذي يزعزع النفوس، و يسلمها إلى حالات من الضعف و التوجس، و التخوف و القنوط، ما قد يدفع صاحب هذه النفسية إلى الانسحاب و الانهزام، و التواري بعد أن يصبح ضدا لنفسه، و عونا للشدة التي نزلت به على ذاته ؛ بدلا من مواجهتها و الصبر إزاءها، و السعي للتغلب عليها، حيث أن الصبر لها هو أول خطوة في طريق الانتصار عليها، و هو ما أرشدنا إليه الرسول الكريم ﷺ، بقوله:« إنما الصَّبرُ عند الصَّدمة الأولى» البخاري.

إن الشدائد تربي نفوسًا، أوتكشف أخرى، ترفع أقوامًا، و تحط آخرين ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، **و كما تكون المحن و الشدائد في الأفراد ، فإنها تحل كذلك بالأمم و المجتمعات.**

قال عن لوطعليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٧٧ – ٨١] **وقال تعالى:** ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، **وقال تعالى:** ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]

قالت عَائِشَةَ ﵂، **زَوْجَ النَّبِيِّ** ﷺ: **"أَرَأَيْتِ قَوْلَهُ:** ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ .. **هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ البَلاَءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَتْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ".** رواه البخاري، **قد تنزل بالإنسان كفرد مصيبة، أو فَقد قريب أو حبيب.. أو غيره، فيزلزله هذا الفقد، أو تلك المصيبة، غير أن من يتذرع بالصبر، و يتجمل بالتحمل؛ مستعينا بالله، محتسبا الأجر و الثواب منه، يتجاوز بإذن الله تلك المحنة أو المصيبة، فعن أبي هريرة** ﵁ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «يقول الله تعالى: ما لعبديَ المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صَفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنَّة»** رواه البخاري.

فالدنيا لا تخلو من كدر ، وكما قال الشاعر أبو الحسن التهامي:

طُبعت على كَدَرٍ و أنت تريدها صفواً من الأقذاءِ و الأكْدار

والمرء تعترض حياته مُنغّصات، و تَنْبُتُ في طريقه متاعب و محن و ابتلاءات، قال النبي ﷺ**:«إن عِظَم الجزاء مع عِظم البلاء، و إن الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهُم فمن رضيَ فله الرضى، و من سَخط فله السُّخْطُ»** رواه الترمذي و قال ؛ حديث حسن.

يقول الشيخ رشيد رضا ﵀ **في بني إسرائيل: "ثُمَّ بَيَّنَ لَنَا تَعَالَى أَنَّهُ أَوْرَثَهُمُ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُهُ الْحُسْنَى عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا، أَيْ لَا بِمُجَرَّدِ آيَاتِ اللهِ لِمُوسَى، وَمَا أَيَّدَهُ بِهِ، فَعُلِمَ مِنْهُ بِالْفِعْلِ أَنَّ الْأُمَّةَ الْمُسْتَضْعَفَةَ مَهْمَا يَكُنْ عَدُوُّهَا الظَّالِمُ لَهَا قَوِيًّا فَلَيْسَ لَهَا أَنْ تَيْأَسَ مِنَ الْحَيَاةِ، وَهُوَ تَحْقِيقٌ لِرَجَاءِ مُوسَى هُنَا، وَلِوَعْدِ اللهِ إِيَّاهُ بِذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ:** ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ﴾". (تفسير المنار ٩، ٤٨٢)

ووصف الله تبارك و تعالى لنا، حال شدة، و زلزلة حلت بالمسلمين يوم الأحزاب:﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

فعند هذه الشدة، و هذه الزلزلة ينقسم الناس إلى فريقين، أو قل تكشف النفوس عن خباياها، و تُختبَرُ حقيقة قواها، و دخائلها، فنوعية تنهار، فتولول مرددة ما قاله إخوة لها من قبل﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[الأحزاب: ١٢] ، **ونوعية أخرى تبحث عن مبررات و أعذار للهروب و الفرار** ﴿إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾ [الأحزاب:١٣]، **و ثالثة، تدير ظهرها للشدة و الزلزلة و بدلاً من مواجهتها فإنها تتجه نحو**

الداخل، فتقوم بجلد الذات، و تحميل السبب و مسؤولية الزلزلة لهؤلاء ، أو أولئك، و هؤلاء الأشخاص، أو تلك القيادات، و هو مبرر واهٍ الغرض منه اختلاق وسيلة للهروب ، و الانسحاب؛ و لكن من باب تقمص دور البطل في أنه إنما فرّ و هرب و انسحب بسبب مَن يُلقي عليهم التهم ؛ لأنهم من تسببوا بهذه الشدة أو الزلزلة، و يحاول تبني دورا بطوليا من مربع تَخلّيه عن دوره، و فراره عن أداء واجبه، متسترًا بمثالية، و متناسيًا:﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ [الأحزاب: ١٥].

غير أن هناك نوعية صابرة، و فئة تتشامخ إيمانًا، وتتألق ثباتًا، عاشت على مائدة القرآن، و نهلت من تربية محمد ﷺ، فإذا هي عند الشدة على يقين، و حين الزلزلة على إيمان و تقوى، و إذا هتافها و شعارها، و لسان حالها، و مقالها: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٢٢].

وفي غزوة حنين، نزلت بالجيش زلزلة بسبب المفاجأة التي فاجأت الجيش بكمين للمشركين في عماهة الصبح، و كان من شدة زلزلتها أن وصف الله تلك الساعة، و حالة الجيش، بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥]، أيُّ شدة، و أي زلزلة تحل بإنسان تضيق أمامه الأرض بما رحبت؟ ليس الهروب من الزلزلة هو الصواب، و لا هو الحل، و إنما الحل و الصواب؛ هو مواجهة الكرب و الغمة، و التصدي لأية شدة مزلزلة، و هنا أمام زلزلة ضاقت معها الأرض بما رحبت، ثبت الرسول الكريم ﷺ، و واجه، و ثبت بثباته عشرات، قيل أنهم كانوا ثمانين، و قيل مائة، و كان لثباته ﷺ أن عاد إليه من كان قد أخذتهم زلزلة المفاجأة التي فاجأهم بها العدو. و لابد عند كل بلاء وزلزلة من فئة تثبت؛ فيثبت بثباتها الجموع، وكما قال أبو تمام:

فَأَثبَتَ في مُستَنقَعِ المَوتِ رِجلَهُ وَقالَ لَها مِن تَحتِ أَخمُصِكِ الحَشرُ

حين ارتدت قبائل العرب بعد وفاة النبي ﷺ، و لم يبق إلا المدينة المنورة، و مكة المكرمة، نزل بالمسلمين شدة و بلاء، و كرب و زلزلة، و لم تقف تلك القبائل عند ردتها و إنما سعت لمهاجمة المدينة المنورة. لقد كانت زلزلة عظيمة نزلت بالمسلمين، فانبرى لها الصديق أبوبكر رضي الله عنه، دون مهادنة، ولا مساومة و لو بمقدار عَناق كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ كان يمكن أن تنهار الدولة، و ينتصر البغي، و ترتد الجزيرة العربية على عقبيها؛ إلى ماضي عهدها التعيس من الضلال، و الفرقة و التمزق، لكن صبر الصديق، و قوة الإرادة التي أبداها و نفذها، واجتماع الصحابة من حوله أعادت

كل الجزيرة العربية إلى حظيرة الإسلام.

و تكرر هذا الأمر بعد أن أقدمت الأيادي الفارسية على اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، حيث حدث تمرد أوسع في خراسان و شمال أفريقيا، بعد تولي الخليفة الجديد الخلافة، و هو عثمان بن عفان ﷺ فواجه ذلك التمرد بإرادة قضت على تلك الزلزلة، التي كانت أوسع، و أخطر من ردة العرب، و إن كانت هذه أشهر.

لقد حلت بالعرب والمسلمين عامة وبالفلسطينيين خاصة نكبة مزلزلة أودتْ بفلسطين، فتراجع العرب و المسلمون أمام تلك النكبة التي تضافرت عليها قوى الاستعمار الصليبي دعمًا للصهيونية. حتى وجد الفلسطينيون أنفسهم في نهاية المطاف وحيدين، وكانت كل المعطيات والمؤشرات تظهر اليأس، وتبرز القنوط إزاء هذا الابتلاء المحيط، والزلزلة العاتية.

وفيما كان الفلسطينيون يبنون قدراتهم الإيمانية و المادية بإرادة نادرة، وعمل دؤوب، و بصمت لإعداد أنفسهم لمواجهة الغطرسة، و التجبر الصهيوني، كان جانب من العرب يسعون جهارًا؛ و بذل و خزي للتطبيع مع الكيان الصهيوني اللقيط، و كانت نكبة ١٩٤٨م بالنسبة للأمة العربية والإسلامية نكبة مزلزلة، وتبعتها نكبات، و كان الواجب المفروض أن يعزم العرب و المسلمون على الإعداد والاستعداد لمنازلة المشروع الصهيوني الصليبي و استراجع الحق السليب؛ أرض فلسطين، بيد أن شيئًا من هذا لم يحدث.

وجاء اليوم الذي انبثقت فيه المقاومة الفلسطينية بثوبٍ جديد، و قلبٍ أجَدّ، و هدفٍ بيّن؛ سلكت معه استلهام سبيل الرشاد، و عمقها الإسلامي؛ ليأتي الإعداد و الاستعداد النفسي و الفكري و الثقافي و العقدي مكافئا و مواجها للعدو الصهيوني الذي كان قد بدأ يعربد بغطرسة و كبر، بدافع من جبن مسار التطبيع المشين.

و لأول مرة تحل هذه الكرَّةُ الزلزلة على رأس الكيان الصهيوني، بعملية عسكرية فلسطينية خالصة يوم السابع من شهر أكتوبر ٢٠٢٣م. زلزلت الكيان الصهيوني، وزلزلت حلفاءه معه؛ لقوة الضربة التي نزلت على رأس الكيان اللقيط.

إنه الإيمان، و مبادئ الإسلام، و إنه الصبر و الثبات، كما أنه التنشئة الجهادية الصحيحة التي أتت بقوم يحبون الموت في سبيل الله كما يحب الصهاينة الحياة. و بذلك رسمت المقاومة الفلسطينية الطريق التي ينبغي على الأمة العربية و الإسلامية أن تسلكها﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

14 سنة الوقاية

يقول الدكتور وهبة الزحيلي : " ذكر تعالى أنه يكفي المؤمنين في الدنيا ما أهمَّهم ويمنع عنهم ما يخوفونهم به، فقال:﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾ أي أن الله سبحانه يكفي من عبده وتوكّل عليه، فيدفع عنه الويلات والمصائب، ويعطيه جميع المرغوبات، كقوله:﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة ١٣٧/ ٢]، وعبر بلفظ الاستفهام لإنكار النفي، مبالغة في الإثبات، والمراد تقرير ذلك في النفوس، والإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه وأظهره بحيث لا ينكره أحد؛ لأنه ثبت أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، قادر على كل الممكنات، غني عن كل الحاجات، فهو تعالى عالم بحاجات العباد، وقادر على توفيرها، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء عبده ما يريد، والمراد بعبده: النبي ﷺ وجميع عباد الله، بدليل قراءة (عباده)".(التفسير المنير، ٢٤/٩).

تكفل الله بوقاية أنبيائه وعباده المؤمنين من مؤمرات الكيد والمكر والتربص فقال سبحانه : ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠]، **ويقول الله تعالى:** ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، **وقال تعالى:** ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾[إبراهيم : ٤٦]، **ويقول سبحانه وتعالى:** ﴿ قَد مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم فَأَتَى اللّهُ بُنيَانَهُم مِّنَ القَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيهِمُ السَّقفُ مِن فَوقِهِم وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِن حَيثُ لاَ يَشعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، **وقال الله عَزَّوَجَلَّ مؤكدًا الحماية الكاملة لنبيه محمد ﷺ:** ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾[الحجر: ٩٥]،**وقال** : ﴿ وَإِذ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ أَو يَقتُلُوكَ أَو يُخرِجُوكَ وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، **وقال تعالى عن وقايته لإبراهيم**عليه السلام : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٠]، **وقال تعالى في سورة الفيل:** ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ١_ ٥]، **وقال تعالى متوعدًا الكافرين**﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق:١١_١٧]، **وقال**

تعالى عن تربص الكافرين ، ووقاية الله للمؤمنين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [سورة التوبة: ٥٢]، **ودعا الله المؤمنين لإعداد القوة إرهابًا للعدو وإحباطًا لمؤامراتهم فقال:** ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الانفال:٦٠]، **وقال الله جلَّت عظمته:** ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة:١٠٧]، **قال أبو عامر الفاسق للنبي ﷺ : "لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن، يئس أبو عامر وخرج هارباً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء"، فذلك وقوله : سبحانه وتعالى :** ﴿ وإرصاداً ﴾ **يعني انتظاراً لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام من قبل يعني أن أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل مسجد الضرار.**

يقول منقذ بن محمود السقار: " وإن من دلائل النبوة حمايةُ الله لأنبيائه، وإنجاؤه لمن شاء منهم من أيدي أعدائهم، رغم ما يتربص بهم السفهاءُ من السوء، ولقد قال نوح عليه السلام متحدياً كفارَ قومه: ﴿يا قوم إن كان كبُر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمرُكم عليكم غُمةً ثم اقضوا إلىّ ولا تنظِرون﴾ (يونس:٧١) ، **فلم يصلوا إليه بسوء لحماية الله له، ومثله قول أخيه هود – ﷺ:** ﴿قال إنى أُشهِد الله واشهدوا أنى برىءٌ مما تشركون – من دونه فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون – إنى توكلت على الله ربى وربكم﴾ [هود: ٥٤ – ٥٦] .

ولما أراد السفهاء قتل إبراهيم عليه السلام، وألقوه في النار أنجاه الله منها بقدرته وفضله ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ۝٦٨ قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم – وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء: ٦٨ – ٧٠] .

وكذا كان الحال مع نبينا ﷺ ، فقد أنجاه الله من المؤامرات التي واجهتْه من لدن بعثتِه عليه الصلاة والسلام، وقد أخبره الله وأنبأه بسلامتِه من كيدهم وعدوانهم، فقال له: ﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ (المائدة:

٦٧) .

قال ابن كثير رحمه الله : "أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظُك وناصرُك ومؤيدُك على أعدائك ومُظفِرُك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل إليك أحدُ منهم بسوء يؤذيك" (١٤٣/٣)

تقول عائشة رضي الله عنها:" كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ **(المائدة: ٦٧) ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسَه من القبة، فقال لهم: « يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله»"** رواه الترمذي.(دلائل النبوة،٩٥)

قال الماوردي رحمه الله :"فمن معجزاته ﷺ: عصمتُه من أعدائه، وهم الجمُّ الغفير، والعددُ الكثير، وهم على أتم حَنَقٍ عليه، وأشدُّ طلبٍ لنفيه، وهو بينهم مسترسلٌ قاهر، ولهم مخالطٌ ومكاثر، ترمُقُه أبصارُهم شزراً، وترتد عنه أيديهم ذعراً، وقد هاجر عنه أصحابه حذراً حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة، ثم خرج عنهم سليماً، لم يكْلَم (يُجْرَح) في نفسٍ ولا جسد، وما كان ذاك إلا بعصمةٍ إلهيةٍ وعَدَه الله تعالى بها فحققها، حيث يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ **[المائدة: ٦٧] فعَصَمَه منهم".**

يقول الأمين الشنقيطي رحمه الله : " وقد يكون النصر بكف يد الأعداء قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] **، وكما في اليهود قوله :** ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦ – ٢٧]" .

يأتي أحد زعماء غطفان نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ، فدخل على رسول الله قال له ﷺ : ما الذي جاء بكَ إلينا ؟ قال: جئتُ مسلمًا، زعيم قبيلة، قال: مُرْني يا رسول الله: قال: أنت واحد، خَذِّل عنَّا ما استطعت، فذهب إلى اليهود قبل أن يعرفوا أنه قد أسلم، وشككهم بقريش، وجاء إلى قريش قبل أن يعرفوا أنه أسلم، وشككهم باليهود، فنشب خلافٌ بين قريش وبين اليهود، ثم هبت رياح عاصفة قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وشتتهم، وبذلك أجرى الله على يد الصحابي نعيم بن مسعود رضي الله عنه ذهاب مؤامرات الأحزاب.

سنة التداول (السجال)

تقرر هذه السنة أن المدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل دائرة بين النصر والهزيمة ، وأن حال أهل الحق في طريق التمكين دائر بين الشدة والرخاء، وبين القوة والضعف، وبين لحظات الأمل ولحظات اليأس ، وأن التمكين لا يتوقف على أمة بل ينتقل من أمة تمكنت منها أسباب السقوط إلى أمة أخرى تمكنت من أسباب النهوض، وكلما أجاد أهل الحق في التغيير النفسي والعقلي والسلوكي كلما كانت الدولة لهم على عدوهم حتى يمكنهم الله، وكلما تعثروا في ذلك كلما طال زمن بلاءهم وتأخر دورهم في التمكين على الأمم والإستخلاف في الأرض.

يقول ابن عاشور رحمه الله : "وَإِنَّمَا يَكُونُ كَمَالُ النَّصْرِ عَلَى حَسَبِ ضَرُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَى حَسَبِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى، وَلِذَلِكَ كَانَ هَذَا الْوَعْدُ غَالِبًا لِلرَّسُولِ وَمَنْ مَعَهُ فَيَكُونُ النَّصْرُ تَامًّا فِي حَالَةِ الْخَطَرِ كَمَا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَيَكُونُ سِجَالًا فِي حَالَةِ السِّعَةِ كَمَا فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَول النبيء ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَا تَعْبُدُ فِي الْأَرْضِ» وَيَكُونُ لِمَنْ بعد الرَّسُول ﷺ مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَسَبِ تَمَسُّكِهِمْ بوصايا الرَّسُول ﷺ". (التحرير والتنوير، ٢٦ / ١٨٢)

قال تعالى عن يوم أحد : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٠] **وقال عن يوم حنين:** ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝٢٦ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

قَالَ البراء: " جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الرُّمَاةِ يَوْمَ أُحُدٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا، وَسَبْعِينَ قَتِيلًا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالحَرْبُ سِجَالٌ " صحيح البخاري (٥ / ٧٨) ، وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: "سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ –يعني قتالهم لمحمد ﷺ "، فَزَعَمْتَ "أَنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ، وفي رواية: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. فَقال: فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ" صحيح البخاري (٤ / ١٩) ، (١ / ٩)

قال الإمام البغوي﵀: " الدُّولةُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُتداولُ مِن المالِ، والدُّولةُ: الانْتِقالُ مِنْ حالِ البُؤْسِ والضُّرُّ إِلَى حالِ الغِبْطةِ والسُّرُورِ ، وقوْلُهُ سُبْحانهُ وَتعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ، يُقالُ: أدال اللهُ فُلانًا مِنْ فُلانٍ، أيْ: جعل لهُ الدّولة عليْهِ، والمُدالُ، الظّافِرُ، وجمْعُ الدّوْلةِ: دُولٌ ودُولاتٌ". (شرح السنة للبغوي ،١١ / ١٣٠) ، وورد في الأثر: " وَلَا سَوَاءَ، كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ مُسْتَذَلِّينَ، فَلَمَّا خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَتْ سِجَالُ الْحَرْبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، نُدَالُ عَلَيْهِمْ وَيُدَالُونَ عَلَيْنَا" سنن ابن ماجه (١ / ٤٢٧) –ومعناه صحيح–.

ويقول الدكتور جاسم سلطان: " (دال) .. أي انتقل من حال إلى حال. و(أدال) الشيء أي جعله متداولاً. و(داول) الأمر بينهم أي جعله متداولاً تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء، فالمقصود أن الأحداث والوقائع لا تستمر على حال ولا منوال واحد؛ بل هي تارة لهذا الطرف وتارة أخرى للطرف الآخر. فدوام الحال من المحال. فالمنتصر اليوم كان مهزوماً بالأمس، وهكذا تمضي الحياة. يوم لك ويوم عليك" (قوانين النهضة ، ١٨٧).

قال أبو علي الأصفهاني﵀: " ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾، أي نجعل الدّول في الأزمان فتحول وتنقل بين الناس على حسب استحقاقهم أو سببًا لامتحانهم، وقد سمّت العرب وقعاتها أياما فيقولون لنا: يوم كذا ويوم كذا، وساغ ذلك لوقوعها فيها" (الأزمنة والأمكنة،١١٥).

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ الْكِنْدِيِّ قَالَ: " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَوْلَةً حَتَّى إِنَّ لِلْحُمْقِ عَلَى الْعَقْلِ دَوْلَةً " قَالَ الْبَيْهَقِيُّ ﵀: " الدَّوْلَةُ لِمَنْ وَافَقَهُ الْقَضَاءُ وَالتَّقْدِيرُ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ " (شعب الإيمان ،١ / ٤٠١) ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ﵀ : " سَمِعْتُ أَبَا الْجَوْزَاءِ يقول والله لَيُعِزَّنَّ الله ملك بني أمية كما أعز ملك من كان قبلهم، ثم ليذلنّ ملكهم كما أذلّ ملك من كان قبلهم، ثم تلا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾" (البداية والنهاية، ط إحياء التراث ،١٠ / ٥٣) .

ويقول الدكتور محمد أمحزون : "ومن السنن الربانية : مداولة الأيام بين الناس ، من الشدة إلى الرخاء ، ومن الرخاء إلى الشدة ، ومن النصر إلى الهزيمة ، ومن الهزيمة إلى النصر ، قال الله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾، وهذه السنة نافذةٌ بحسب ما تقتضيه سنة تغيير ما بالأنفس ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾، وهنا يضع الله عَزَّوَجَلَّ أيدينا على سرٍّ عظيم ، وهو ارتباط المداولة بين الأمم والدول والمجتمعات مع التغيير النفسي والذاتي في الأمة؛ فسقوط الحضارات ونهوضها، والأمم

في ارتفاعها وهبوطها، مرتبطة بهذا التغيير النفسي في مسارها عبر التاريخ والحاضر والمستقبل، وهي سنةٌ ماضيةٌ ثابتةٌ لا تتغير ولا تتبدل".

ويقول أيضًا: " وقد تكون الإدالة على المسلمين بتخلف النصر عنهم حين يتركون طاعة الرسول أو يطمعون في الغنيمة كما حدث في غزوة أحد، أو حين يركنون لكثرة العدد، ويعجبون بأنفسهم، وينسون سندهم الأصيل كما وقع في غزوة حنين، وحينئذٍ تكون الدُولة والغلبة لغيرهم بصفة مؤقتة، لحكمة هي استكمال حقيقة الإيمان ومقتضاه من الأعمال، ومتى تحقق ذلك جاء النصر؛ لأن الهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس هموداً وكلالاً وقنوطاً، فأما إذا بعثت الهمة، وأذكت الشعلة، وبصّرت بالمزالق، وكشفت عن طبيعة المعركة وطبيعة العقيدة وطبيعة الطريق : فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد" (من قضايا المنهج العلم بالسنن الربانية)

ويقول الدكتور عماد الدين خليل: " نرجع إلى كتاب الله ، لكي نرى أنفسنا إزاء مفهوم (المداولة) الدائم الذي لا يسكن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾ ، إنه الدولاب التاريخي الذي يظل يدور، يرفع قوماً ويضع آخرين، ولن تظل أمة أو دولة أو حضارة على حالها ؛ إنها جميعاً تخضع للحركة ذاتها : الميلاد والنمو والشيخوخة والذبول" (محاضرة: دراسات في السيرة والتاريخ القرآن الكريم وسنن الله في التاريخ، ص٤).

وأضاف: " ولا يستثني الإسلام والمسلمين، وقد قال: نداولها بين الناس، بمعنى عموم هذه (السنة) التي لا محيص عنها، والتي تقوم بلا ريب على أسبابها ومقدماتها في صميم الفعل الإنساني نفسه؛ حيث توصي هذه المداولة بالحركة الدائمة وبالتجدد وبالأمل البشري الذي يرفض السكون، ويرغب في الانطلاق نحو الفعل الحضاري الإيجابي الذي يمكنه من استعادة ذاتيته الحضارية" (التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٥٦، وما بعدها). ويقول أيضًا: "هذا القانون يمكن أن نسميه قانون الأمل العائد، فمع ضياع أي فرصة فلا زالت هناك فرص أخرى قادمة، ومن فاته قطار اليوم سيلحق بالقطار التالي، لذا يجب أن يكون جاهزاً لركوبه وإلا فاته واضطر لانتظار القطار الذي يليه، وهكذا.. فإذا كان الأمل مستمراً سواء كان الوضع يبدو يائساً في لحظة تاريخية معينة أم لا، فعلى قادة وطلاب النهضة الأخذ بقانون التداول القائل إن ذلك الوضع لن يدوم، وأن علينا واجب الاستعداد والتحرك المستمر، بحيث لو أتى القطار في اللحظة التي يقدرها رب العالمين، نكون قادرين على اقتناص الفرصة والصعود وتحقيق المغانم والنصر. وهذا ما نسميه (الاستماع للحظة التاريخية).

إذن هناك عملٌ قبل وجود الفرصة، وهذا العمل القبلي من الاستعدادات يؤكد على اليقين

بعملية التداول، واليقين بعملية التداول ينفي عملية اليأس التي تصيب الناس من رؤية قوة طاغية كالاتحاد السوفيتي في لحظة معينة، أو كالولايات المتحدة الأمريكية في عصرنا الحاضر، أو كالرومان والفرس في عصر ما، إذن يعلمنا هذا القانون أن كل وضع يبدو صعباً في لحظة ما فإنه سيصبح هشاً في لحظة أخرى لاحقة، وإلا تعطل، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فهناك عملٌ قبل وجود الفرصة، وهناك عملٌ لاغتنامها، وهناك عملٌ بعد الفرص" (نقلاً عن قوانين النهضة، جاسم السلطان ، ٢٢٢)

قال الشاعر إبراهيم الطوقان:

وَالأَمنُ وَالخَوفُ أَيّامٌ مُداوَلَةٌ بَينَ الأَنامِ وَبَعدَ الضِّيقِ مُتَّسَعُ

وقال أبو فراس الحمداني:

الدَهرُ يَومانِ ذا ثَبتٌ وَذا زَلَلُ وَالعَيشُ طَعمانِ ذا صابٌ وَذا عَسَلُ
كَذا الزَمانُ فَما في نِعمَةٍ بَطَرٌ لِلعارِفينَ وَلا في نِقمَةٍ فَشَلُ
سَعادَةُ المَرءِ في السَرّاءِ إِن رَجَحَت وَالعَدلُ أَن يَتَساوى الهَمُّ وَالجَذَلُ
وَما الهُمومُ وَإِن حاذَرتَ ثابِتَةٌ وَلا السُرورُ وَإِن أَمَّلتَ يَتَّصِلُ
فَما الأَسى لِهُمومٍ لابَقاءَ لَها وَما السُرورُ بِنُعمى سَوفَ تَنتَقِلُ

سنة المراجعة

إن سنة المراجعة مطلبٌ دائم لتقويم النفس، والتخلص من الأخطاء، والاستفادة منها كرصيد خبرة للانطلاق في مشروع عمارة الكون وإحياءه بمنهج الله المستقيم﴿ إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يِهْـدِى لِلَّتِـى هِـىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩].

يقول الدكتور محمد صالح المنجد: " إن اكتشاف الخطأ المنهجي أصعب بكثير من اكتشاف الخطأ العملي، والخلل المنهجي يقود إلى التمادي في الخطأ العملي، بل إن الخطأ في المنهج علاجه في غاية الصعوبة، ولكن هذا لا يعفي الإنسان من استمراره في النظر والتدبر؛ ليعرف حاله".

والتقليد للآباء، والسير على مذهب : ﴿إِنَّـا وَجَدْنَـا آبَاءنَـا عَلَى أُمَّـةٍ وَإِنَّـا عَلَى آثَارِهِـم مُّقْتَـدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، **فيه تغييبٌ لنعمة (العقل) الذي ميزنا الله به عن سائر المخلوقات، واستمرارٌ لتتابع الأخطاء وتواليها، وهو أسلوبٌ مرفوضٌ في منهج الإسلام الذي يقر وقوع البشر في الخطأ « كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون »** رواه الترمذي، **ولكنه يدعوهم إلى (التوبة) التي محورها تقييم النفس ومحاسبتها، وتقييم أعمال الجوارح وإصلاحها، وتقييم الواقع ومراجعته، ليتجنب الفرد والمجتمع والدولة والأمة مخاطر استدعاء أخطاء الماضي للعيش بها حاضرًا ومستقبلًا.**

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّـا أَصَابَتْكُـم مُّصِيبَـةٌ قَـدْ أَصَبْتُـم مِّثْلَيْهَـا قُلْتُـمْ أَنَّى هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِـنْ عِنـدِ أَنْفُسِـكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيـرٌ﴾ [آل عمران : ١٦٥]، **ويقول عَزَّوَجَلَّ:** ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَلْتَنظُـرْ نَفْـسٌ مَّـا قَدَّمَـتْ لِغَـدٍ وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيـرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ* وَلَا تَكُونُـوا كَالَّذِيـنَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنسَـاهُمْ أَنفُسَـهُمْ أُوْلَـئِكَ هُـمُ الْفَاسِـقُونَ﴾ [الحشر:١٩]، **وفي التوبة كسبيلٍ لتصويب المسار، وتجنب الوقوع في الأخطاء، يقول الله تعالى:** ﴿وَتُوبُـوا إِلَـى اللَّهِ جَمِيعًـا أَيُّـهَ الْمُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ﴾ [النور: ٣١]، **ويقول تعالى :** ﴿ يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَـى اللَّهِ تَوْبَـةً نَصُوحًـا عَسَـى رَبُّكُـمْ أَنْ يُكَفِّـرَ عَنْكُـمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُـمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِى مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ يَـوْمَ لَا يُخْـزِى اللَّهُ النَّبِـىَّ وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا مَعَـهُ نُورُهُـمْ يَسْـعَى بَيْـنَ أَيْدِيهِـمْ وَبِأَيْمَانِهِـمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَتْمِـمْ لَنَـا نُورَنَـا وَاغْفِـرْ لَنَـا إِنَّـكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيـرٌ﴾ [التحريم: ٨ـ٩].

إن من منهج الإسلام، المراجعة الدائمة للنفس والمجتمع، والرفض التام للتعايش مع التصورات الخاطئة _الناتج عنها مواقف خاطئة_ ، والمسارعة إلى تصحيحها، فعنْ أنس بن مالك ﷺ: أنَّ نَفَرًا

مِن أصحاب النَّبيﷺ سَأَلوا أزواج النَّبِيﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أَتَزَوَّج النِّساءَ، وقال بعضهم: لا آكُل اللَّحْم، وقال بعضهم: لا أنام على فِراش، فحَمِدَ الله، وأَثْنى عليه، وقال: « ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا؛ لكني أُصَلِّي وأنام، وأصوم وأفطر، وأَتَزَوَّج النساء؛ فَمَنْ رَغِب عنْ سُنَّتِي فليْسَ مني»؛ رواه البخاري ومسلم، وقالﷺ « الكَيِّسُ : من دانَ نفسَهُ، وعمل لما بعدَ الموتِ والعاجزُ : من أتبَع نفسَهُ هواها، وتمنَّى على اللهِ » رواه الترمذي، وفي بيان مراد من البشر عند الخطأ، يقول ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لهمْ» رواه مسلم.

كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ، عندما ولاه قضاء اليمن: "لا يمنعنك قضاء قضيته راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن تراجع الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل" (واه البيهقي، ٢٥٢/١٠)،(والدار قطني، ٣٦٧/٥).. وقد كان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا ليوم العرض الأكبر: ثم يتلو قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾". قال ابن رجبﷺ: "كان أئمة السلف المجمع على علمهم وفضلهم يقبلون الحق ممن أورده عليهم وإن كان صغيراً، ويوصون أصحابهم وأتباعهم بقبول الحق إذا ظهر في غير قولهم" (الفرق بين النصيحة والتعيير، ص: ٨).

وسنة المراجعة كانت منهجًا سار عليه المسلمون: قال شمس الدين الذهبيﷺ عن نعيم بن حمادﷺ: " الإمام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعي المروزي الفرضي، صاحب التصانيف كان جهمياً (يرى أن الجنة والنار تفنيان ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط)، فتاب ورجع، وصار من أئمة أهل السنة، وكان يذكر ذلك ويبين مفاسد منهجهم، وقال صالح بن مسمار: سمعت نعيم بن حماد يقول: "أنا كنت جَهمياً، فلذلك عرفت كلامهم" كنت معهم، أجلس معهم، أقرأ كتبهم، أسمع مقالاتهم، أعرفهم، "فلما طلبت الحديث" للسنة اتجه، وصار يطلب حديث النبي ﷺ ومعانيه وشروحه (عرفت أن أمرهم يرجع إلى التعطيل) يعطلون أسماء الله وصفاته [سير أعلام النبلاء: ٥٩٧/١٠].

قال تقي الدين الهلالي:

حمداً لـــربي إذ هــداني مِنَّــة ... منه وكنت على شفا النيران

والله لـــو أن الجوارح كلهـــا ... شكرتكَ يا ربي مــدى الأزمــان

ما كنتُ إلا عاجـــزاً ومقصراً ... في جنْبِ شكرك صاحب الإحسان

أكرمتني وهديتني وهديتَ بي ... في جنْبِ شكرك صاحب الإحسان

سنة الانتصار من الباغي

إن البغي يمثل أسوأ المنكرات بل هو في الصف المقابل للعدل والإحسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].**لا شك أن الباغي لو تيقنَ أنه سيُنتصر عليه لن يُقدم على البغي؛ وبهذا يكون الانتصار من الباغي زاجراً له من الوقوع في البغي مهما كانت النفس البشرية تنزع إلى البغي، يقول ابن عاشور**رحمه الله **في تفسير قول الله** ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ۝٨﴾ [العلق: ٦-٨] **" بينت هذه الآيات حقيقةً نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبهت إلى الحذر من تغلغها في النفس، كما أن فيها موعظة للطاغي وتهديد".**

و قد ورد عن البغي في الأرض عدة آيات كقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣]، **ويقول الله فيمن يبغي بالتجاوز والتعدي على الناس في أنفسهم، أو أموالهم، وأعراضهم،** ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦]، **وقال الله تعالى في سياق حديثه عن قصة قارون ناهيًا عن البغي بالفساد المالي:** ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]،، **وقال تعالى عن الفئة الباغية، وحكمها:** ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]، **ويقول تعالى في الآية الجامعة لأصول أحوال الجاهلية _ كما قال ابن عاشور_، والقاعدة الأساسية في تمييز الحلال من الحرام** : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾[الأعراف:٣٣]، **وقال**

تعالى في تقرير صفة أساسية في الأمة الإسلامية _كونها خير أمة أخرجت للناس لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر_ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى:٣٩_٤٢]، **وقال تعالى في إشارة إلى أنّ الدفاع عن النفس ومجابهة الظلم حقٌّ طبيعي لكلّ إنسان، وعبارة** ﴿ بِمِثْلِ ﴾ **تأكيدٌ لحقيقة أنّ الدفاع لا يجوز له أن يتعدّى حدوده،** ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:٦٠].

قال النبي ﷺ: « ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّلَ اللهُ لصاحبِه العقوبةَ في الدُّنيا مع ما يدَّخِرُ له في الآخرةِ من البَغْيِ ، وقطيعةِ الرَّحِمِ » رواه الترمذي وابن ماجة، **وعن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: « بَابانِ مُعجَّلانِ عُقوبتُهما في الدنيا: البَغْيُ، والعُقوقُ»** رواه البخاري في الأدب والمفرد، وصححه الألباني.

وقال رسول الله ﷺ: « إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أن تواضَعوا حتى لا يبغيَ أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ » رواه أبو داود، **فالباغي بطبيعته متكبر، يرفع نفسه فوق منزلتها فلا ينقاد لأحد.. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " نهى الله على لسان نبيه عن نوعي الاستطالة على الخلق: وهي الفخر والبغي ؛ لأن المُستطيل إنِ استطال بحقٍ فقد افتخر، أو بغير حقٍ فقد بَغى، فلا يحل هذا ولا هذا، وفي الجمع بينهما إشعارٌ بأن الفخرَ والبغيَ نتيجتا الكِبْر.. ومنْ هذه صفته فهو عَصيٌ على العلاج والشفاء".**

يقول القرطبي رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:٦٠]، **" نزلت هذه الآية في قوم من المشركين، مثلوا بقوم من المسلمين قتلوهم يوم أحد فعاقبهم رسول الله بمثله، فمعنى** ﴿مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾، **أي من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ؛ فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين في الصورة ؛ فهو مثل** ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى : ٤٠]، **ومثل** ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٤]، **وقوله:** ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، **أي بالكلام والإزعاج من وطنه ؛ وذلك أن المشركين كذبوا نبيهم وآذوا من آمن به وأخرجوه وأخرجوهم من مكة، وظاهروا على إخراجهم.** ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ **أي لينصرن الله محمدًا ﷺ وأصحابه ؛ فإن الكفار بَغوا عليهم.** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ **أي عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام وستر".**

يقول سيد قطب ﷺ في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، "ذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة ، فهي تقريرٌ لصفة أساسية في الجماعة المسلمة... صفة الانتصار من البغي، وعدم الخضوع للظلم، وهذا طبيعيٌ بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة. لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل؛ وهي عزيزة بالله، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.. فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان، وإذا كانت هناك فترة اقتضت _لأسباب محلية في مكة، ولمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة_، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فذلك أمرٌ عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة".

إن مضار البغي الفردي مهما كانت خطيرة ستكون دون مضار البغي الجماعي الذي يعصف باستقرار المجتمع، وقد ذكر القرآن الكريم نوعين من البغي الجماعي؛ الأول منهما: أن يحصل نزاعٌ بين فئتين حول شيءٍ ما يؤدي للاقتتال، وهنا يجب على المجتمع أن يسارع بالصلح بين الطائفتين المقتتلتين، فإن قبلت الطائفتان الصلح فذلك هو المطلوب شرعاً وعرفاً، وإن أبت إحدى الطائفتين ذلك الصلح، واستمرت في الحرب في وجه الطائفة التي قبلت الصلح تعد باغية، وعلى المجتمع والدولة إخضاعها بالقوة حتى تفيئ إلى أمر الله، وهذا الموقف الجماعي الصارم هدفه تغيير المنكر الكبير عملياً، وهدفه تحقيق التوازن والعدل، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩]،

والنوع الثاني من البغي، وهو أن تتكون جماعة مفسدة فتقوم بإقلاق السكينة العامة، وترويع المسافرين، والتحكم بإحدى الطرق العامة، ومن يمر فيها، وتفرض إتاوات مالية وشروطاً مجحفة بالمسافرين، ومن لا يلتزم بها يكون عرضةً للتنكيل والقتل، وتسمى أفعال هذه العصابة الباغية بـ(الحِرابَة) في الفقه الإسلامي، وخطورة هذه العصابة أفضعُ من خطورة الطائفة الأولى لأن أضرارها يصل إلى كل بيتٍ، ولأنها مدعاه لتشجيع أكثر من عصابة في أكثر من طريق؛ ولهذا يجب على الدولة أن تُسرع في إخماد هذه الفتنة قبل أن تتشكل جيوب أخرى، قال تعالى :﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣ _ ٣٤] .

إن المنكر إذا ظهر في بلدٍ وفي مجتمعٍ ما فإنه إذا لم يُنكَر من عقلاء الناس وصلحائهم فإنه سيستشري بَغيُه، وينتشر فسادُه، وتصعب معالجته، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] ، **وقال تعالى:** ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨٠].

ومن يتأمل في التاريخ الطويل يجد الأغلبية البشرية لا ترتدع بركائز الإيمان، وإنما ترتدع بيد الدولة بدرجة أولى، ثم بيد المجتمع، ثم بيد الفرد الأبي؛ ولهذا فإن العدالة الشوروية العادلة الخادمة الحازمة ضرورةٌ بشريةٌ لتخفيف الضعف بين الرعية فإذا خرجت الدولة عن وظيفتها وتعطلت مصالح الناس، وأصبحت الدولة هي البغي الأكبر والأقوى على التنكيل برعيتها، وقد أشار الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ إلى الدور الفاعل للدولة الرشيدة بقوله: " إن الله ليزَعُ بالسلطان ما لا يَزعُ بالقرآن".

أخيراً ؛ فإن من لا يسعى إلى الخلاص من البغي بأي وجهٍ من وجوه الاستطاعة، ولا يأنف من الظلم الذي حلَّ به أو بالمجتمع والأمة فإنه محسوبٌ في موكب الظلمة المعرَّضين للعقوبة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩]، **وأسوأ من هؤلاء من يأبى التغيير الذي ينفعه، ويضحي بنفسه وحياته لينتصر عليه من ظلمه، وهؤلاء للأسف يحتلون نسبة غير قليلة.**

وهكذا فإن هذه السنة الثابتة، تبث الأمل والرجاء في قلوب المؤمنين في عالمنا المعاصر والذين ظلموا كثيرًا من قوى البغي والعدوان والظلم والجبروت العالمية، ولذلك نقول لكل مظلوم، ولكل من طاله البغي والعدوان من أهلنا في غزة المجاهدة، وفلسطين الجريحة، وفي دول أخرى من عالمنا الإسلامي أن الله ناصرهم لا محالة، ﴿ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريبًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

سنة النبذ للمرجفين

يقول الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي: " وهذا الحكم وهو لعن المنافقين وأسرهم وتقتيلهم وتسليط المؤمنين عليهم وقهرهم، هو سنة الله وطريقته في المنافقين في كل زمن مضى، وهم منافقو الأمم، ولا تبديل ولا تغيير لسنة الله ونظامه، لقيامها على الحكمة والمصلحة وصلاح الأمة، بل هي سنة ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء مدى الزمان، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، أي استنوا بسنة الله تعالى، ويلاحظ أيضا أن الأوصاف الثلاثة: وهي النفاق، ومرض القلب، والإرجاف موجودة كلها في المنافقين. وهم خطر على الأمة في عقيدتها، وفي سلمها وحربها، فهم كالسوس ينخر في جسم الأمة، وهم في السّلم جرثومة فتك وأداة تخريب وتفريق، وفي الحرب أداة إضعاف وإشاعة السوء، وزعزعة المقاتلين، وهم في الواقع عون للأعداء على المسلمين، مما يجب التخلص منهم، وعقابهم أشد العقاب". (التفسير الوسيط،٣ / ٢٠٨٨)

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ **[التوبة: ٨١ - ٨٦] وقال تعالى:** ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ **[الأحزاب: ٦٠ - ٦٢]، وحذر الله المؤمنين من صفات المخذلين، فقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦_ ١٥٧].

وفي تفسير سورة (العاديات)، "رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهﷺ بعثَ إلى أناسٍ منْ بنِي كنانةَ سريةً

واستعملَ عليَها المنذرَ بنَ عمروٍ الأنصاري، وكان أحدَ النقباءِ فأبطأ عليهِ الصلاةُ والسلامُ خبرُهَا شهراً فقالَ المنافقونَ: إنهم قُتلوا، فنزلتْ السورةُ إخباراً للنبيِّ ﷺ بسلامتِها وبشارةً لهُ بإغارتِها على القومِ ونعياً على المُرجفينَ في حقِّهم مَا هُم فيهِ من الكنودِ وفي تخصيصِ خيلِ الغُزاةِ بالإقسامِ بَها منَ البراعةِ ما لا مزيدَ عليه كأنه قيلَ وخيلِ الغُزاةِ التي فعلتْ كيتَ وكيتَ وقد أرجفَ هؤلاءِ في حقِّ أربابِها ما أرجفُوا أنهم مبالغونَ في الكفرانِ " (تفسير أبو السعود،٩ /١٩١)، قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وسبب نزول هذه الآية: هو "أن رسولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إلى غَزْوَةِ أُحُدٍ في أَلْفِ رَجُلٍ مِن أصحابِهِ. حَتَّى إذَا كَانُوا بِالشَّوْطِ بَيْنَ الْمدِينَةِ وَأُحُدٍ، انْخَزَلَ (تراجع وتخاذل) عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بن سَلُولَ بِثُلُثِ النَّاسِ، وَقَالَ: أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي، مَا نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَرَجَعَ بِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ، وَاتَّبَعَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، يَقُولُ: يَا قَوْمِ، أذكِّركم اللهَ أَلَّا تَخْذُلُوا قومكم ونبيّكم عِنْد مَا حَضَرَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَقَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمَا أَسْلَمْنَاكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَى أَنَّهُ يَكُونُ قِتَالٌ. قَالَ: فَلَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إِلَّا الِانْصِرَافَ عَنْهُمْ، قَالَ: أَبْعَدَكُمُ اللهُ أَعْدَاءَ اللهِ، فَسَيُغْنِي اللهُ عَنْكُمْ نَبِيَّهُ". (السيرة النبوية، ابن هشام،٢/٦٤)

يقول سيد قطب رحمه الله: "وفي النهاية يأتي تهديد المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين الذين ينشرون الشائعات المزلزلة في صفوف الجماعة المسلمة.. تهديدهم القوي الحاسم بأنهم إذا لم يرتدعوا عما يأتونه من هذا كله، وينتهوا عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، والجماعة المسلمة كلها، أن يسلط الله عليهم نبيه، كما سلطه على اليهود من قبل، فيطهر منهم جو المدينة، ويطاردهم من الأرض؛ ويبيح دمهم فحيثما وجدوا أُخذوا وقتلوا، كما جرت سنة الله فيمن قبلهم من اليهود على يد النبي ﷺ وغير اليهود من المفسدين في الأرض في القرون الخالية:﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢]، ومن هذا التهديد الحاسم ندرك مدى قوة المسلمين في المدينة بعد بني قريظة ، ومدى سيطرة الدولة الإسلامية عليها. وانزواء المنافقين إلا فيما يدبرونه من كيد خفي، لا يقدرون على الظهور؛ إلا وهم مهددون خائفون". (في ظلال القرآن، ٥/٢٨٨٠)

يقول أبو السعود رحمه الله في تفسيره: " ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنكَ بقتالهم وإجلائهم، أو بما يضطرهم إلى الجلاء، ولنُحرِّضنكَ على ذلك،﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾، عطفٌ على جواب القسم، و

«ثم» للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول ﷺ أعظم ما يصيبهم. ﴿فِيهَا﴾ أي: في المدينة. ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ زمانًا، أو جوارًا قليلًا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه" (تفسير أبو السعود،١/١١٥).

يقول ابن عاشور رحمه الله: "والإرجاف : إشاعة الأخبار ، وفيه معنى كون الأخبار كاذبة أو مسيئة لأصحابها يعيدونها في المجالس ليطمئن السامعون لها مرة بعد مرة بأنها صادقة لأن الإشاعة إنما تقصد للترويج بشيء غير واقع أو مما لا يصدق به لاشتقاق ذلك من الرجف والرجفان وهو الاضطراب والتزلزل، فالمرجفون قوم يتلقون الأخبار فيحدثون بها في مجال ونواد ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل . ومعنى الإرجاف هنا : أنهم يرجفون بما يؤذي النبيء ﷺ والمسلمين والمسلمات ، ويتحدثون عن سرايا المسلمين فيقولون : هزموا أو أسرع فيهم القتل أو نحو ذلك لإيقاع الشك في نفوس الناس والخوف وسوء ظن بعضهم ببعض، وهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وأتباعهم وهم الذين قال الله فيهم (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) في سورة النساء ، فهذه الأوصاف لأصناف من الناس، وكان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين، لأن قوله عقبه لنغرينك بهم لا يساعد أن فيهم مؤمنين ". (التحرير والتنوير،٢١/١٠٨)

ذكر حمزة عبدالفتاح قاسم أن للإرجاف في القرآن معانٍ كثيرة منها:الإشاعة، والتثبيط، والتخذيل، واللمز، والهمز، والنبز، والإرهاب، والتعويق، فهي إما وسائل أو نتائج لإرجاف المرجفين»(الإرجاف دراسة قرآنية، ١٧٦).

ويتحدث الأستاذ الدكتور فؤاد البنا عن (غوائل الإرجاف) فيقول: " إن الإرجاف سلاحٌ خطير ضد الأمة، وأحد أوجه خطورته هو تلفعه بأستار زاهية، وتدثره بأعذار ماكرة، وتسلحه بالمكر والمخاتلة والتحرك السري الذي يصعب اكتشافه؛ ولهذا كانت أهم حادثة في هذا الشأن، هي حادثة الإفك ضد عائشة رضي الله عنها ، أم المؤمنين وأعلم نساء الصحابة، ونزل قرآن يتلى إلى قيام الساعة في تبرئتها، غير أن طوابير الإرجاف لم تنفك عن هذا الاتهام الباطل من قبل مجاميع تنتسب إلى المسلمين، وذلك حتى يساعد هذا القذف في اكتشاف المؤمنين لهؤلاء المنافقين في كل الأزمنة، ولو تدثروا بأثواب التشيع، وتزينوا بحب آل البيت!!".

ورد في الموسوعة الفيهية الكويتية: "كما لاَ يَجُوزُ لِلأَمِيرِ أَنْ يَسْتَصْحِبَ مَعَهُ إِلَى الْجِهَادِ مُرْجِفًا، وَإِنْ كَانَ الأَمِيرُ هُوَ أَحَدَ الْمُرْجِفِينَ لَمْ يُسْتَحَبَّ الْخُرُوجُ مَعَهُ لِلْجِهَادِ (المغني، ٨ / ٣٥١) ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيل اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، وَلَوْ خَرَجَ مُرْجِفٌ مَعَ الْجَيْشِ لاَ يُسْهَمُ لَهُ فِي الْغَنِيمَةِ، وَلاَ يُرْضَخُ لَهُ مِنْهَا" (المغني، ٨ / ٣٥١) ، (الموسوعة الفقهية الكويتية ، ٣/٨١).

سنة 19
إهلاك العدو

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام في رده على بني إسرائيل: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، **"أَيْ: قَالَ مُوسَى عليه السلام: إِنَّ الْمَرْجُوَّ مِنْ فَضْلِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمُ الَّذِي سَخَّرَكُمْ وَآذَاكُمْ بِظُلْمِهِ، وَيَجْعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمْ إِيَّاهَا، وَيَمْنَعَكُمْ فِرْعَوْنُ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْهَا، فَيَنْظُرَ سُبْحَانَهُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"** (تفسير المنار ،٩ / ٧٢)

وَفِي أَوَّلِ الْفَصْلِ السَّادِسِ مِنْ سِفْرِ الْخُرُوجِ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: .. قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنَا الرَّبُّ لِأُخْرِجَكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ، وَأُخَلِّصَكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ، وَأَفْدِيَكُمْ بِذِرَاعٍ مَبْسُوطَةٍ، وَأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ، وَأَتَّخِذَكُمْ لِي شَعْبًا، وَأَكُونَ لَكُمْ إِلَهًا، وَتَعْلَمُونَ أَنَّنِي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمُ الْمُخْرِجُ لَكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَسَأُدْخِلُكُمُ الْأَرْضَ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي مُقْسِمًا أَنْ أُعْطِيَهَا لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَأُعْطِيَهَا لَكُمْ مِيرَاثًا) (تفسير المنار، ٩ / ٧٢).

قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، **وقال تعالى :** ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، **وقال تعالى :**﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَاأُولِى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٨ – ١٠]، **وفي ارتباط الهلاك بالظلم، يقول تعالى:** ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧]،**وقال عزوجل:** ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير﴾ [الحج: ٤٨]، **وقال تعالى :** ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]، **كما قال سبحانه:**﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠] . **ويقول سبحانه وتعالى:** ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

[الأنبياء:١١] **ثم أخبر سبحانه أنهم قالوا وهم يعاينون العذاب** ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٤-١٥]، **وفي تعبير قرآني آخر** ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج من الآية:٤٨]، و﴿كَأَيِّن﴾ **إنما تستخدم عند العرب لتكثير العدد، وهذا يدل على كثرة تلك القرى التي أخذها الله تعالى.**

قال ابن جرير ﷺ: **"حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا حدثنا عوف، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله** ﷺ: **«ما أَهْلكَ اللهُ قَوْمًا ، و لا قَرْنًا، و لا أُمَّةً ، ولا أهلَ قَرْيَةٍ مُنْذُ أنْزَلَ التوراةَ على وجْهِ الأرضِ بِعَذَابٍ مِنَ السَّماءِ، غيرَ أهلِ القَرْيَةِ التي مُسِخَتْ قِرَدَةً، أَلَمْ تَرَ إلى قَوْلِهِ تعالى : ﴿ و لقدْ آتيْنا مُوسَى الكتابَ من بَعْدِ ما أهلَكْنا القُرُونَ الأُولَى بَصائِرَ لِلنَّاسِ و هُدًى ورَحْمَةً لعلَّهُمْ يتَذَكَّرُونَ﴾»"**. (السلسلة الصحيحة:٢٢٥٨)، **ورواه ابن أبي حاتم، من حديث عوف بن أبي جَميلة الأعرابي، بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده، عن أبي سعيد –رفعه إلى النبي** ﷺ **قال: «ما أهلكَ الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى"، ثم قرأ:** ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى ﴾». (تفسير ابن كثير، ٦/ ٢٣٩)

ويقول ابن تيمية ﷺ : **" إن الله عَزَّوَجَلَّ كانت سنته قبل إنزال التوراة، إذا كذب نبي من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بعذاب من عنده، كما أهلك قوم نوح بالغرق، وقوم هود بالريح الصرصر، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق قال تعالى:**﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ [القصص: ٤٣] . **فلما أنزل التوراة، أمر أهل الكتاب بالجهاد، فمنهم من نكل ومنهم من أطاع، وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة"**. (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، ٥/ ١٠١).

يقول وهبة الزحيلي : " ولقد قارب الكفار أن يخرجوك من (مكة) بإزعاجهم إيَّاك، ولو أخرجوك منها لم يمكثوا فيها بعدك إلا زمنًا قليلاً حتى تحل بهم العقوبة العاجلة. تلك سنة الله تعالى في إهلاك الأمة التي تُخرج رسولها من بينها، ولن تجد –أيها الرسول– لسنتنا تغييرًا، فلا خلف في وعدنا". (التفسير المنير، ١/ ٢٩٠)

جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكْ الأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ الآخِرِينَ ۞ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، « **أي: قد أَهلكنا الأَولين السابقين جميعًا ممن كذبوا بالرسل، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، وإِهلاكُهم وتدميرُهم أَمرٌ ثابتٌ مقررٌ قد وقع وحصل، وهذا وعيدٌ وزجرٌ**

لأَهل مكة ومن على شاكلتهم من المشركين والكافرين، أَي: سنفعل بكم مثل هذا النكال، وننزل بكم نظير هذا العذاب إن بقيتم على ما أَنتم عليه من الشرك والضلال، فهذه هي سنتنا وطريقتنا في عقاب كل من يجرم ويكفر: نأخذه ونهلكه مثل إهلاكنا من سبق من المجرمين المكذبين، وعلى هذا فالمراد من ﴿الأَوَّلِينَ﴾ كل من كذَّب من الأُمم السابقة، والمراد من ﴿الآخِرِينَ﴾هم أَهل مكة وأَضرابهم"(التفسير الوسيط، ٧٢٨/١٠)

قال تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال:٥٤]، **يقول الألوسي** ﷺ: **"والالتفات إلى نون العظمة في (أهلكنا) جَريًا على سنن الكبرياء؛ لتهويل الخطب ، وكما في قوله تعالى:** ﴿ وَأَغْرَقْنَا ﴾... **وفي قوله تعالى:** ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ **تفسيرٌ لدَأْبهم الذي فعَلوه من تغييرهم لحالهم، وأُشِير بلفظ الرب إلى أن ذلك التغيير كان بكفران نِعَمِه تعالى؛ لِمَا فيه من الدلالة على أنه مربّيهم، والمُنعِم عليهم، وقوله تعالى:** ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ **تفسيرٌ لدَأْبهم الذي فعل بهم مِن تغييره تعالى ما بهم من نعمته جل شأنه... وفي الإهلاك رمزٌ إلى التغيير؛ ولذا عبَّر به دون الأخذ المعبَّر به أولًا، وليس الأخذ مثله في ذلك؛ ألا ترى أنه كثيرًا ما يطلق الإهلاك على إخراج الشيء عن نظامه الذي هو عليه؟ ولم نرَ إطلاق الأخذ على ذلك".** (روح المعاني،٢٧/٦،٢٩)

يقول ابن عاشور ﷺ، **في قول الله تعالى:** ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَة الْأَنْبِيَاء ١١ـ١٤]، **عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ** ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٦] **أَوْ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى** ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾، **وَهُوَ تَعْرِيضٌ بِالتَّهْدِيدِ. مُنَاسَبَةُ مَوْقِعِهَا أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ أَنَّهُ صَدَقَ رُسُلَهُ وَعْدَهُ وَهُوَ خَبَرٌ يُفِيدُ ابْتِدَاءَ التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الرُّسُلِ وَنَصْرِهِمْ وَبِشَأْنِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِنَصْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِكْرَ إِهْلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُ تَبَعًا لِذَلِكَ، فَأَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ إِهْلَاكِ أُمَمٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الظَّالِمِينَ وَوَصْفِ مَا حَلَّ بِهِمْ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَقْصُودًا بِذَاتِهِ ابْتِدَاءً اهْتِمَامًا بِهِ لِيَقْرَعَ أَسْمَاعَهُمْ، فَهُوَ تَعْرِيضٌ بِإِنْذَارِالْمُشْرِكِينَ بِالِانْقِرَاضِ بِقَاعِدَةِ قِيَاسِ الْمُسَاوَاةِ، وَأَن الله ينشيء بَعْدَهُمْ أُمَّةً مُؤْمِنَةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى** ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ فِى سُورَةٍ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ١٩]. (التحرير والتنوير،١٧/٢٤،٢٣)

ويقول ـأيضًاـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[الأنفال:٥٤]، **تكريرٌ**

لقوله : ﴿ كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ﴾ **المذكور قبله؛ لقصد التأكيد والتسميع، تقريرٌ للإنذار والتهديد وخولفَ بين الجملتين تفننًا في الأسلوب، وزيادة للفائدة بذكر التكذيب هنا بعد ذكر الكفر هناك، وهما سببان للأخذ والإهلاك كما قدمناه آنفًا ... وعُبِّر بالإهلاك عوض الأخذ المتقدم ذكره ليفسر الأخذ بأنه آل إلى الإهلاك وزيْدَ الإهلاك بيانًا بالنسبة إلى آل فرعون بأنه إهلاك الغرق".**(التحرير والتنوير، ٤٦/١١).

لقد دلَّ القرآنُ على أن لعذاب الظالمين موعدًا مضروبًا، وأجلًا محتومًا، قد قدره الله تعالى، فلا يستقدم عنه لرغبة المظلومين، ولا يستأخر عنه لرغبة الظالمين ﴿وَتِلْـكَ الْقُـرَى أَهْلَكْنَاهُـمْ لَمَّـا ظَلَمُـوا وَجَعَلْنَـا لِمَهْلِكِهِـم مَّوْعِـدًا﴾ [الكهف:٥٩].

وهذه السنة في هلاك الظالمين، واستخلاف المظلومين بعدهم؛ وعد من الله تعالى أوحى به إلى رسله ﷺ**؛ تأكيدًا على أن هذه السنة الربانية جارية في الأمم كلها** ﴿فَأَوْحَـى إِلَيْهِـمْ رَبُّهُـمْ لَنُهْلِكَـنَّ الظَّالِمِيـنَ وَلَنُسْـكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِـن بَعْدِهِـمْ﴾ [إبراهيم من الآيتين:١٣-١٤].، **وقد وقعت هذه السنة العظيمة في الأمم السالفة، قال الله تعالى في فرعون وجنده** ﴿فَانتَقَمْنَـا مِنْهُـمْ فَأَغْرَقْنَاهُـمْ فِى الْيَـمِّ بِأَنَّهُـمْ كَذَّبُـوا بِآيَاتِنَـا وَكَانُـوا عَنْهَـا غَافِلِيـنَ وَأَوْرَثْنَـا الْقَـوْمَ الَّذِيـنَ كَانُوا يُسْـتَضْعَفُونَ مَشَـارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا الَّتِى بَارَكْنَـا فِيهَـا﴾ [الأعراف من الآيتين:١٣٦-١٣٧].

وما زالت سنة إهلاك الظالمين باقية: ﴿وَقَـالَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لِرُسُـلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُـمْ مِـنْ أَرْضِنَـا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِى مِلَّتِنَـا فَأَوْحَى إِلَيْهِـمْ رَبُّهُـمْ لَنُهْلِكَـنَّ الظَّالِمِيـنَ﴾ [إبراهيم:١٣]، **وهذا الكلام** ﴿لَنُهْلِكَـنَّ الظَّالِمِيـنَ﴾ **[إبراهيم:١٣] مطلق،**﴿وَلَنُسْـكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِـنْ بَعْدِهِـمْ ذَلِـكَ لِمَـنْ خَـافَ مَقَامِـى وَخَـافَ وَعِيـدِ﴾ [إبراهيم:١٤]، **فأي أمة تخاف مقام الله عز وجل وتخاف وعيده عز وجل فلا بد أن تمكن في النهاية، ولا بد أن يهلك الظالمون لها، فهي سنة ماضية إلى يوم القيامة.**

20 سنة الإنقاذ

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، **هو تبشير للمؤمنين، وتطمين لهم من أن يصيبهم شيء من هذا المكروه الذي سيحّل بالكافرين.. فالمؤمنون بمنجاة من هذا المكروه.. إنهم مع رسل الله، وإن الله سبحانه وتعالى لن يتخلّى عن رسله، ولن يريهم منه إلا ما يسرّهم من الأمن والعافية، والدرجات العليا عنده.. وكذلك المؤمنون الذين اتّبعوا الرسل.. إنهم معهم حيث يكونون.. فالمرء مع من أحبّ.. وفي هذا خزي للكافرين، إذ حرموا من أن ينالوا شيئا من هذا الذي ينعم فيه المؤمنون مع رسل الله.. من نصر الله وتأييده.. وفي قوله تعالى:** ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، **"إشارة إلى أن هذا الوعد الذي وعده الله رسله والمؤمنين، هو وعدٌ حقّ لا شكّ فيه، قد أوجبه الله على نفسه، فضلًا وكرمًا، كما يقول سبحانه وتعالى:** ﴿كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾... **وكما يقول سبحانه:** ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[المجادلة: ٢١]"** (التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ١٠٩١/٦).

قال تعالى عن نوحعليه السلام **وقومه:** ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، **وقال تعالى عن هود وقومه:** ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، **وقال تعالى عن لوط**عليه السلام **وقومه:** ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، **وقال تعالى عن صالح**عليه السلام **وقومه:** ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، **وقال تعالى عن موسى**عليه السلام **وقومه:** ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، **وقال عن مؤمن آل فرعون:** ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]، **وقال تعالى عن موسى**عليه السلام **وقومه:** ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧ – ١٢٩]

ثم بين صدق وعد الله في إنقاذ بني إسرائيل: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧]

وقال تعالى عن المؤمنين يوم الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١]

ثم بيَّنَ صدق وعد الله في إنقاذهم: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧]

يقول محمد أبو زهرة رحمه الله : " أخذ _ سبحانه وتعالي _ يذكر النعم التي أنعمها على بني اسرائيل ، وابتدأ بنعمة الإنقاذ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **[البقرة:٤٩_٥٣]، ابتدأ _ سبحانه وتعالى _ بأعلى النعم التي أنعم بها عليهم، وهي نعمة الإنقاذ من شر من في الوجود إبان ذلك، وهو فرعون الذي اتخذه الفساق الظالمون من الحكام قدوة يقتدون به في مظالمه، وإن لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أن ينتصروا في الحروب مثل انتصاره في عصره.**

أنقذهم الله تعالى على يد موسى عليه السلام كليم الله من بطش فرعون، وقد كان بطشه شديدا بهم، لأنهم كانوا يعدون أجانب في مصر، وكانوا أعداء لهم، فكان فرعون يتخذ السبيل لإفنائهم، أو إضعافهم، فكان يقتل شبابهم ذبحاً، ويبقي النساء، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومونَكمْ سوءَ الْعَذَابِ﴾، **قال سبحانه وتعالى:** ﴿وَإِذْ نَجَّيناكم﴾ **أي اذكروا الوقت الذي**

أنجيناكم فيه من آل فرعون، فإذ تدل على الوقت الماضي، ومعنى ذكر الوقت ذكر ما كان فيه من أحداث خطيرة وشديدة، واستحضار الأهوال التي كانوا يعيشون في بأسائها، وضرائها، وإنه تقدر النجاة من الله تعالى بمقدار ما كان هول الأمر الذي نجاهم الله تعالى منه.

ولقد قال تعالى: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾، **ولم يقل أنجاكم من فرعون، وذلك لأن آله شيعته ونصراؤه وأعوانه، وطغاة الدنيا يكون شرهم من أنفسهم أولًا، ومن حاشيتهم الذين يحطون على أهوائهم ثانيًا، فيزينون لهم ظلمهم، ويسمونه عدلًا ويبينون له وجوه الكيد، ويمكرون مكرهم، فلولا بطانة السوء ما كان السوء، ولولا حاشية فساق الحكام ما استمكنوا، وما طغوا في البلاد، وكلمة حق من حاشيتهم تقيم عدلًا، وتدفع ظلمًا؛ لذلك عبَّر بآل فرعون؛ لأنه لم يَستمْكن وحده من الظلم"** (زهرة التفاسير، ١/ ٢٢٤_٢٢٥)

يقول ابن عاشوررحمه الله **في تفسير قول الله:** ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾، **"هذا محل العبرة من القصة ، فهو مُفرَّع عليها تفريع النتيجة على المقدمات على القصة، فإنه بعد أن وصف عناد فرعون وملئه وتكذيبهم رسالة موسى**عليه السلام **واقتراحهم على موسى أن يجيء بآية ومشاهدتهم آية انقلاب العصا ثعبانًا، وتغيير لون يده ، ورميهم موسى**عليه السلام **بالسحر، وسوء المقصد، ومعارضة السحرة معجزة موسى**عليه السلام **وتغلب موسى**عليه السلام **عليهم ، وكيف أخذ الله آل فرعون بمصائب جعلها آيات على صدق موسى**عليه السلام**، وكيف كابروا وعاندوا، حتى ألجئوا إلى أن وعدوا موسى بالإيمان وتسريح بني إسرائيل معه وعاهدوه على ذلك، فلما كشف عنهم الرجز نكثوا ، فأخبر الله بأن ذلك ترتب عليه استئصال المستكبرين المعاندين، وتحرير المؤمنين الذين كانوا مستضعفين، وذلك محل العبرة ...**

وفي نجاة إبراهيمعليه السلام**، قال الله تعالى:** ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٢٤]، **وقال الله تعالى:**﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٨- ٦٩]**.، ويقول _أيضًا_ في تفسير قول الله تعالى :** " ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الأنبياء:٧٤_٧٥]...**هذه نجاةٌ ثانيةٌ بعد نجاته من ضُرِّ النار، هي نجاته من الحلول بين قومٍ عدو له كافرين بربه وربهم ، وهي نجاةٌ من دار الشرك وفساد الاعتقاد، وتلك بأن سهَّلَ اللهُ له المهاجرة من بلاد الكلدان إلى أرض فلسطين وهي بلاد كنعان".** (التحرير والتنوير،١٨: ١٠٨).

يقول سيد قطبرحمه الله: **"ويختم هذا المقطع من السياق بالنتيجة الأخيرة لكل رسالة ولكل تكذيب، وبالعبرة الأخيرة من ذلك القصص وذلك التعقيب:**﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾**،إنها الكلمة التي كتبها الله على نفسه: أن تبقى البذرة المؤمنة، وتنبت، وتنجو بعد كل إيذاءٍ وكل خطرٍ، وبعد كل تكذيبٍ وكل تعذيب..هكذا كان – والقصص المروي في السورة شاهدٌ – وهكذا يكون.. فليطمئن المؤمنون".** (في ظلال القرآن،٣/١٨٢٤)

21 سنة التأييد الإلهي

يقول ابن القيم ﷺ: " وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر:٥١]، **وقال:** ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤]، **فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد، ولهذا إذا أُصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بادالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم وهو من نقص إيمانه...فالمؤمن عزيزٌ غالبٌ مؤيدٌ منصورٌ، مكفيٌ، مدفوعٌ عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهرًا وباطنًا.**

وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩]، **وقال تعالى :** ﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد:٣٥]، **فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم، التي هي جندٌ من جنود الله، يحفظهم بها، ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم، فيبطلها عليهم، كما يَتِرُ الكافرين والمنافقين أعمالهم إذ كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره".** (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ٢/١٨٢-١٨٣).

وفي مجال التأييد الروحي الإيماني المعنوي، يقول الله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، **وفي التأييد الإيوائي بالتمكن والمنعة بكثرة الأنصار، والرزق الطيب الحلال يقول الله عَزَّوَجَلَّ:**﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]،

وفي حماية الله لرسوله الكريم من كل أنواع الأذى، وإنزاله للسكينة، ومده بالجنود، وجعل كلمة الله العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى تأييدٌ إلهيٌ عظيم، قال تعالى :﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى

وَكَلِمَـةُ اللهِ هِـيَ الْعُلْيَـا وَاللهُ عَزِيـزٌ حَكِيـمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

عَنْ أبي بَكْرٍ الصديق رضي الله عنه قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النبي ﷺ في الْغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا. قَالَ: اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا" رواه البخاري.

و في قصة سراقة الذي عَثرَت به فرسُه في كل مرةٍ يحاول اللحاق برسول الله ﷺ والقبض عليه، دليلٌ على تحقق وعد الله بعصمة نبيه من الناس، وعلى التأييد الإلهي والنصر الرباني لنبيه ﷺ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: « اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى أَسْقَطَ رِدَاءَهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ".

يقول الشعراوي رحمه الله في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج:٣٨] **"أمرٌ طبيعيٌ؛ لأن الحق سبحانه ما كان ليرسل رسولًا، ويتركه لأهل الباطل يتغلبون عليه، وإلا فما جدوى الرسالة إذن، لذلك يُطمئن الله تعالى رسوله ويبشره، فيقول:** ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾" [الصافات: ١٧١_١٧٣].

يقول ابن تيمية رحمه الله : " مِنْ آيَاتِهِ ﷺ تَأْيِيدُ اللَّهِ لَهُ بِمَلَائِكَتِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩]، وَقَالَ تَعَالَى فِي الْهِجْرَةِ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ، **وَقَالَ تَعَالَى فِي بَدْرٍ:** ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٦]، " (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ٦/ ٢٦٣_٢٦٥).

يقول فخر الدين الرازي ﷺ في تفسير لقول الله تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[البقرة:٢٤٩]، **" المراد منه تقوية قلوب الذين قالوا :** ﴿ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾[البقرة:٢٤٩]، **والمعنى: أنه لا عِبرةَ بكثرة العدد، إنما العبرة بالتأييد الإلهي والنصر السماوي، فإذا جاءت الدُّولَة فلا مَضرة في القلة والذلة، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعُدَّة "** (التفسير الكبير، ١٥٧/٦).

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب ﷺ: " إن الذي يدرس بإمعان غزوات (بدر) و (أحد) و (الخندق) و (حنين)، ويطّلع على موقف الطرفين: المسلمين والمشركين، ويُدقق في تطور المعركة، يجد بوضوحٍ الأثر الشخصي الفعّال لقيادة النبي ﷺ للمسلمين، ...كما يجد أن انتصار الرسول ﷺ يرجع الى عاملين: العامل الأول هو: تأييد الله تعالى له بنصره المبين، والعامل الثاني هو: أسبابٌ عسكريةٌ فنيةٌ، وهذه الأسباب العسكرية تتلخص في أربعة أسباب:

١– قيادة عبقرية هي قيادة الرسول ﷺ.

٢– وجنود متميزين هم المسلمون الأولون.

٣– وحرب عادلة هي حرب المسلمين لأعدائهم.

٤– وأخيرًا تردي الحالة العسكرية لأعداء المسلمين من العرب المشركين والروم والفرس".(الرسول القائد، ٤٣٢).

ومن سنن التأييد الإلهي لعباده المؤمنين في_حاضرنا_ ما حققه المجاهدون في قطاع غزة من سهولة هدم الجدار العنصري، واقتياد العشرات والعشرات من ضباط وجنود الاحتلال الصهيوني، ومن سنن التأييد _غير المتوقعة _ ارتباك العدو الصهيوني، واهتزاز اقتصاده بصورةٍ غير مسبوقة، ومنها ثبات وصمود أبناء غزة جميعًا رغم قلة الزاد والعتاد، وهمجية القصف ووحشية الدمار، ومن سنن التأييد _أيضًا_ التعريف عالميًا بقضية الشعب الفلسطيني العادلة، لتصبح قضية فلسطين إنسانية عالمية.

22 سنة القوة

يقول سيد قطب﵀ : " إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في (الأرض) لتحرير (الإنسان) .. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. والأمر الثاني: إن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على (دار الإسلام) التي تحميها تلك القوة.. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير (الإنسان) كله في (الأرض) كلها.. والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه" (في ظلال القرآن ،٣ / ١٥٤٣)

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، **وقال تعالى** ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠]، **وعن عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنبَرِ، يَقُولُ:** « ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ، **«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»**

صحيح مسلم (٣ / ١٥٢٢)

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ "هذا مِنْ قَبِيلِ حَدِيثِ الْحَجُّ عَرَفَةُ بِمَعْنَى أَنَّ كُلًّا مِنهُمَا أَعْظَمُ الْأَرْكَانِ فِي بَابِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ رَمْيَ الْعَدُوِّ عَنْ بُعْدٍ بِمَا يَقْتُلُهُ أَسْلَمُ مِنْ مُصَاوَلَتِهِ عَلَى الْقُرْبِ بِسَيْفٍ أَوْ رُمْحٍ أَوْ حَرْبَةٍ، وَإِطْلَاقُ الرَّمْيِ فِي الْحَدِيثِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُرْمَى بِهِ الْعَدُوُّ مِنْ سَهْمٍ أَوْقَذِيفَةٍ مَنْجَنِيقٍ أَوْ طَيَّارَةٍ أَوْ بُنْدُقِيَّةٍ أَوْ مِدْفَعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا مَعْرُوفًا فِي عَصْرِهِ. ﷺ. فَإِنَّ اللَّفْظَ يَشْمَلُهُ وَالْمُرَادُ مِنْهُ يَقْتَضِيهِ، وَلَوْ كَانَ قَيَّدَهُ بِالسِّهَامِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فَكَيْفَ وَهُوَ لَمْ يُقَيِّدْهُ، وَمَا يُدْرِينَا لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُطْلَقًا، لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ لِأُمَّتِهِ فِي كُلِّ عَصْرٍ بِحَسْبِ مَا يُرْمَى بِهِ فِيهِ – وَهُنَاكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْحَثِّ عَلَى الرَّمْيِ بِالسِّهَامِ؛ لِأَنَّهُ كَرَمْيِ الرَّصَاصِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ أَدَلُّ عَلَى الْعُمُومِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِالْمُسْتَطَاعِ مُوَجَّهٌ إِلَى الْأُمَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ كَسَائِرِ خِطَابَاتِ التَّشْرِيعِ حَتَّى مَا كَانَ مِنْهَا وَارِدًا فِي سَبَبٍ مُعَيَّنٍ. وَمِنْ قَوَاعِدِ الْأُصُولِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ" (تفسير المنار ،١٠ / ٥٣)

يقول سيد قطب ﷺ: "فإعداد القوة والإرهاب بها مما يعين على جلاء الحق في أنماط من القلوب. لا تستيقظ ولا تتبين إلا على إيقاعات القوة التي تحمل الحق وتنطلق به لإعلان تحرير (الإنسان) في الأرض .. فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض. الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله". (في ظلال القرآن ،٣ / ١٥٤٤)

ويقول رشيد رضا ﷺ: "أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَجْعَلُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْحَرْبِ (الَّتِي عَلِمُوا أَنْ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهَا لِدَفْعِ الْعُدْوَانِ وَالشَّرِّ، وَلِحِفْظِ الْأَنْفُسِ وَرِعَايَتِهِ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ وَالْفَضِيلَةَ) بِأَمْرَيْنِ: (أَحَدِهِمَا) إِعْدَادُ جَمِيعِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ لَهَا بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ. (وَثَانِيهِمَا) مُرَابَطَةُ فُرْسَانِهِمْ فِي ثُغُورِ بِلَادِهِمْ وَحُدُودِهَا، وَهِيَ مَدَاخِلُ الْأَعْدَاءِ وَمَوَاضِعُ مُهَاجَمَتِهِمْ لِلْبِلَادِ، وَالْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ لِلْأُمَّةِ جُنْدٌ دَائِمٌ مُسْتَعِدٌّ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا إِذَا فَاجَأَهَا الْعَدُوُّ عَلَى غِرَّةٍ، قَاوَمَهُ الْفُرْسَانُ، لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِمْ، وَقُدْرَتِهِمْ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْقِتَالِ، وَإِيصَالِ أَخْبَارِهِ مِنْ ثُغُورِ الْبِلَادِ إِلَى عَاصِمَتِهَا وَسَائِرِ أَرْجَائِهَا، .. عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: « أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ « قَالَهَا ثَلَاثًا، وَهَذَا كَمَ فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ صُنْعُ الْمَدَافِعِ بِأَنْوَاعِهَا وَالْبَنَادِقِ وَالدَّبَّابَاتِ وَالطَّيَّارَاتِ وَالْمَنَاطِيدِ وَإِنْشَاءُ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا، وَمِنْهَا الْغَوَّاصَاتُ الَّتِي تَغُوصُ فِي الْبَحْرِ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُ الْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا" (تفسير المنار ،١٠ / ٥٣)

ويقول الدكتور محمد أمحزون: "وتتجلى سنة الإعداد في قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] .ويجب أن يشمل هذا الإعداد الجوانب التالية:

–الإعداد المالي: إن القوة المادية كما قيل عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها على مر العصور مقهور مسروق لا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، وليس معنى هذا جعل الدعوة شركة تجارية؛ لكنه ينبغي الاعتماد على الذات في موارد ثابتة؛ وهذا من النفرة التي أمرنا الله (عز وجل) بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين، والاستغناء عن مد يد الاستجداء؛ مما يوفر للدعوة حرية التحرك، واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط من أي جهة كانت، إضافة إلى ما توفره القوة المادية من ثقل إعلامي واجتماعي هي بأمس الحاجة إليه، كما يشمل إعداد القوة

الإعداد البدني: بغاية تحمل الجهاد ومشاق الطريق؛ وذلك بممارسة الرياضة البدنية، وركوب الخيل، والسباحة، وتعلم الرماية، لكن قد يقول قائل: ما الدليل على أنه ﷺ كان يدرب أصحابه على الرماية والرياضة في مكة؟ والجواب: أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك؛ فطبيعة نشأتهم وبيئتهم وحياتهم كانت في الأصل قتالية مدربة جاهزة لا يحتاجون معها إلا إلى مجيء الوقت المناسب والأمر بالجهاد". (مجلة البيان ، ع ١١٨ / ٨)

وقال الشاعر محمد بن عائض القرني:

لا يصـــون الحـق إلا وَهَـجٌ ... من لظـى القـوة يجري حمماً
فانهضـي يا أمـة الحـق فقد ... عظـم القيـد وأدمـى القـدما
تلك أشتاتـك من يجمعهـا ... أوَ مـن يبعـث تلـك الرِّمما
أمتـي هـل لك مـن مسَتنَـدٍ ... فلكم ذقـت الأسـى والندمـا
أمتـي هـل لك مـن معتَصـمٍ ... فلكـم ناديـت.. وامعتصـما
جـربي الـذروة فـفي ملتنـا ... فبه النصـر علـى مـن ظلمـا
إنـه الـمـارد مـا أروعـه! ... هـل رأيـت الليـث لما كُلمـا! !

الذروة : الجهاد ذروة سنام الإسلام.

وقال إقبال رحمه الله:

وإذا جيش عـدوٍ في الوغـى ... تـركَ الإعـداد والسلـم بَغـى
وقضى أوقاتـه فـي الدِّعـة ... تاركـاً للحـرب أخـذ العـدة
فحـرامٌ أخـذه بالبغتـة ... قبـل أن يأخـذ كـل الأهبـة
سر هذا الأمـر يـا ذا البصر ... الحيـاة العيـش بيـن الخطر
يتحـداك برضـوى العاليـه ... فـي امتحـان لقـواك العاتيـة
ويناديـك أن اقصـم ظهـرها ... وبحـد السيـف فاصهـر صخرها

23 سنة النصر

يقول الدكتور محمد أمحزون: " إن سنة النصر لا تتخلف متى استوفيت الشروط ، وأهمها : الاستقامة من منهج الله بطاعة أمره واتباع رسوله ، قال تعالى : ﴿ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[محمد : ٧] ، **وقال جلَّ ذكره :** ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] ، **وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالى :** ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٥- ٤٦] . (من قضايا المنهج والعلم بالسنن الربانية)

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]،**وكذلك قال سبحانه:** ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، **وقال سبحانه:** ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، **وقال تعالى:** ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]،**ونصر الله محمدًا ﷺ على قريش، كما قال ربنا:** ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ١-٢]. ،**وقال:** ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].**وقال ربنا:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفي اقتران النصر مع الصبر، قال ﷺ: «...**واعلم أنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ...** »،**ورد في تفسير قول الله** ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾" **مصدرٌ مؤكدٌ لمضمون الجملة قبله من هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين أي: سن الله ذلك سنة الله قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا منه"** (تفسير الجلالين، ٥١٤).،**وفي وقوله عزَّ وجلَّ:** ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢_٢٣]

يقول الزَّجَّاجُ ﷺ : " المعنى لو قاتلك من لم يقاتلك لَنصِرْتَ عَلَيْهم، لأن سنة الله النَصْر لأوليائه وحِزْبه، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، و (سُنَّةَ اللَّهِ) منصوبة على المصْدَرِ، لأن قوله (لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ) مَعناه سنَّ اللَّهُ خِذْلَانَهُمْ سُنَّةً".

يقول الشنقيطي: "فمع كل نصرٍ فتحٌ ومع كل فتحٍ نصرٌ... فالنصر حق من الله : ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقد قال تعالى لموسى وأخيه : ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] فهو نصرُ معيَّةٍ وتأييد فالنصر هنا عام، وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام وأعظم الفتح فتحان : فتح الحديبية وفتح مكة، إذ الأول تمهيدٌ للثاني والثاني قضاءٌ على دولة الشرك في الجزيرة، ويدل لإرادة العموم في النصر والفتح" . (أضواء البيان ، ١٣٧/٩)

يقول الدكتور وهبة الزحيلي : " دلَّ قولُه تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ على ترغيب المسلمين بالتزام الصبر في القيام بالتكاليف الشاقة وتنفيذ الأوامر الإلهية، والاعتصام بتقوى الله بالابتعاد عما نهى الله عنه وحظر منه، فإن يصبروا ويتقوا لا يضرهم كيد الأعداء شيئا. وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر في كل مقامٍ يشق على النفس احتماله، والموقف هنا يتطلب الصبر على عداوة الكافرين واتقاء شرهم، حتى يأذن الله بالفرج القريب والنصر العاجل، والله محيطٌ بأعمالهم، وهو القادرعلى أن يمنعهم مما يريدون بالمسلمين، فلا بد من الثقة بالله والتوكل عليه" (التفسير المنير،٦١/٤)

ويقول صاحب المنار ﷺ، "قال تعالى: ﴿ إن الله مع الصابرين﴾ ولم يقل (معكم) ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفًا لازمًا لهم، وقالوا:إن المعيَّة هنا معيَّة المعونة، فالصابرون موعودون من الله تعالى بالمعونة والظفر، ومن كان الله مُعينهُ وناصرهُ فلا يَغلبه شيءٌ" .

وقال الأستاذ الإمام : " إن من سنة الله تعالى أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله، والله معه بما جعل هذا الصبر سببًا للظفرلأنه يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر فليس الله معه ، لأنه تنَكَّبَ سنته ، ولن يثبت فيبلغ غايته". (تفسير المنار،٢٩/٢)

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي ﷺ عن سنن النصر: " إن النصر لا يأتي عفوًا، ولا ينزل اعتباطًا، ولا يخبط خبط عشواء...إن للنصر قوانين وسُننًا سجَّلها الله في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون ويتعاملوا معها على بصيرة.

وأول هذه القوانين: أن النصر مِن عند الله تعالى،﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ

يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿إِذْ تستغيثون ربَّكم فاستجابَ لكم أنّى مُمِدُّكُم بألفٍ مِن الملائكة مُرْدِفِينَ ومَا جعلَه اللهُ إِلَّا بُشْرى ولِتَطمئن بِهِ قُلُوبُكُمْ ومَا النصرُ إِلَّا مِن عندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حكيمٌ﴾ [الأنفال:٩ . ١٠].

القانون الثاني: أن النصر للمؤمنين فلا ينصر الله إلا من نصره، فمن نصر الله نصره الله، قانونٌ جاء بصيغة الشرط والجزاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ **(محمد:٧)، وجاء في صورة الخبر الثابت المؤكَّد بلام القسم ونون التوكيد:** ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠).﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج:٤١).، **وقد يُعبّر القرآن عن نصر الله تعالى بالإيمان أو الجُندية لله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه:** ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧)، **ويقول:** ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧٣).

القانون الثالث: إن النصر بالمؤمنين فالنصر ـ كما لا يكون إلا للمؤمنين ـ لا يكون إلا بِالمؤمنين، فالنصر لهم، والنصر بهم، فهم غاية النصر، وعُدَّته، وفي هذا يخاطب الله رسوله الكريم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِىَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (الأنفال:٦٢ . ٦٣).، **قد ينصر الله من يريد نصره بالملائكة؛ يُنزلهم من السماء إلى الأرض، كما في غزوة بدر والخندق وحنين:** ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾(الأنفال: ١٢)، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (الأحزاب:٩)، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (التوبة:٢٦).

وقد ينصر الله من يريد نصره بالظواهر الطبيعية يُسَخِّرُها في خدمته، أو يُسلِّطها على عدوه، كما سلَّط الريح على المشركين في الخندق: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، [الأحزاب:٩، فُصِّلت:١٦]، **وكما أنزل المطر رحمةً على المسلمين في بدر:** ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

وقد ينصر الله من يريد نصره بأيدي أعدائه وأعداء الله أنفسهم؛ بما يَقذف في قلوبهم من رعب يُدمّر معنويَّاتهم، ويَقتل شخصياتهم، كما حدَث ليهود بني النضير: ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

يُخْرِبُـونَ بُيُوتَهُـم بِأَيْدِيهِـمْ وَأَيْـدِى الْمُؤْمِنِيـنَ فَاعْتَبِـرُوا يَـا أُولِـى الأَبْصَـارِ﴾ [الحشر:٢].

ولكن أدوات النصر هذه كلها تتوقف على وجود)المؤمنين(، فالملائكة التي نزلت في بدر، لم تنزل على فراغ، بل قال الله لهم: ﴿أَنِّى مَعَكُـمْ فَثَبِّتُـواْ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ﴾ (الأنفال:١٢)**.، وفي غزوة الأحزاب أرسل الله ريحَه وجنوده حين** ﴿ابْتُلِىَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا زِلْـزَالا شَـدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١]**.وفي غزوة حنين:** ﴿أَنـزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَى رَسُـولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِيـنَ﴾ [التوبة:٢٦]". (جيل النصر المنشود، ٩-١٤)

يقول الدكتور عصام عبدالهادي أبو النصر: " إن قوانين وسنن النصر لا تعمل فُرادى، وإنما تعمل مجتمعة، وبالتالي حينما يكون عمل البشر مخططًا ومنظمًا ومحكمًا فهو أحرى أن يطول بقاؤه في الأرض، وأن يكون دماره أبطأ وإن كان حتمي الوقوع، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد يتأخر النصر ويبطئ نصر الله لحكمةٍ ما، لكنه في نهاية المطاف هو آتٍ لا محالة، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْـتَيْأَسَ الرُّسُـلُ وَظَنُّـوا أَنَّهُـمْ قَـدْ كُذِبُـوا جَاءَهُـمْ نَصْرُنَـا فَنُجِّىَ مَـنْ نَشَـاءُ وَلَا يُـرَدُّ بَأْسُـنَا عَـنِ الْقَـوْمِ الْمُجْرِمِيـنَ ﴾ [يوسف:١١٠]، **ويقول تعالى:** ﴿ وكان حقـا علينـا نصـر المؤمنيـن﴾ [الروم:٤٧]، **ويقول** : ﴿ إِنَّـا لَنَنْصُـرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا فِى الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَيَـوْمَ يَقُـومُ الْأَشْـهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]" .

24 سنة التمكين

يقول الدكتور: محمد أمحزون: "وعلى ضوء سنة التمحيص تتحقق سنة أخرى ، وهي سنة التمكين ، إذ يمكّن الله (عز وجل) للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوئهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له، وتطلعهم إليه في زمن الشدة، مستيقنين من نزول نصره بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعاً من صبر وتقوى وإعداد، وقد أدرك أهل العلم والبصيرة هذه الحقيقة ؛ فعندما سئل الإمام الشافعي رحمه الله : "أيما أفضل للرجل : أن يمكّن أو يبتلى ؟ فقال : لا يمكّن حتى يبتلى" (من قضايا المنهج العلم بالسنن الربانية)

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف : ١٠]، **وقال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف : ٢٦]، **وقال تعالى:** ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٤ – ٥٧]، **وقال تعالى:** ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٣]، **وقال تعالى:** ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام : ٦]

قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والدين، والنصر، والتمكين في الأرض» رواه أحمد، **وكذلك قوله: « لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عَزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ»، وكان تَميمٌ الدَّاريُّ يقولُ:" قد عرَفْتُ ذلك في أهْلِ بَيْتي؛ لقد أَصاب مَن أَسلَمَ مِنهمُ الخَيرُ والشَّرفُ والعِزُّ، ولقد أَصاب مَن كان منهم كافِرًا الذُّلُّ والصَّغارُ والجِزْيةُ".** رواه أحمد، **وقال ﷺ: « إنَّ اللَّهَ زَوَى لي الأرْضَ، فرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها...»** رواه مسلم، **وسُئل النبي ﷺ: "أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولًا »** [يعني: القسطنطينية] رواه أحمد.

يقول إبراهيم عبدالفتاح : " دلّت كلمة التمكين في الأرض على هيمنة منهاج الله على ما عداه من المناهج في الأرض، والقدرة التامّة لعباد الله على التصرّف في أرض الله حسَب منهاجه حسًّا ومعنى بأن تصطبغ الحياة بصبغة الإسلام كما أراد الله". (القاموس القويم لألفاظ القرآن الكريم،٢٣٢)، وترِد سنّة التمكين بمعنى: " قانون الله المطّرد في خلقه، ونظامه الحاكم المهيمن في أفعالهم، الذي إذا اتّبعه عبادُه أقدَرَهم على التصرّف في أرضه والهيمنة عليها، وجعل لهم مكانة مكينة في كيفية التعامل مع مفرداتها وإحسان توظيفها". (سنّة التمكين في ضوء القرآن الكريم، رمضان زكي خميس الغريب، ١٣)

وجاءت سنّة التمكين بصفتها: "إحدى السنن المنظمة للكون، وكلّها راجعة إلى الإرادة الكونية وإلى الكلمات التكوينية". (سنن التمكين، محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي)

تقول الدكتورة كريمة بلعربي : " وتتميز سنّة التمكين بتوفر جملة من الشروط؛ منها: الإيمان العميق بالله، والمثابرة، والمنهج الرباني الحكيم. وبوجود هذه الدعائم المادية والمعنوية يكون التمكين والتأييد والنصر المبين، مصداقًا لقوله تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} [القصص: ٥- ٦].

وتتبلور مقاصد سنّة التمكين على علوّ المكانة، والنصر على الأعداء، وتحقيق العمران البشري الذي يسهم في بناء النهوض الحضاري والاستخلاف البشري، والاستنارة بهذه المرتكزات يهدي المؤمن لصلاح الأعمال والطريق المستقيم، ويزكي النفوس من أمراض القلوب، حيث تعالج الأزمات والانتكاسات وتداوي الأسقام، والأوجاع، وتريح الصدور من الوساوس والعلل النفسية.

كان نبي الله يوسف عليه السلام ملتزمًا بسنن الأخذ بالأسباب المعنوية والمادية، فجاءته سنّة التمكين، برحمة من الله، ولكونه يستحق الجزاء والمنحة لإحسانه مع ربه وإخوته وحسن خلقه، {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٥٦].

يقول الدكتور صلاح الخالدي ﷾: " فإن الله هو الذي مكّن ليوسف –عليه السلام– في الأرض، بعلمه وحكمته، وقد مَرّ بتمكينين: التمكين الأول تمكين الله يوسف في الأرض عندما استقر في بيت العزيز، وما مَرّ به من امتحانات وابتلاءات وهي مرحلة موصلة للتمكين الثاني: تبوُّء يوسفَ في منصب عزيز مصر، حيث سيلتقي بإخوته، وسيجتمع بأهله، وستستقر الأسرة كلّها عنده في مصر، وهذا تمكين الله وعلمه وحكمته سبحانه؛ وهو مظهر من مظاهر حكمة الله، تقدير الأحداث

وترتيبها".(القصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، ٢/ ١٨٤)

قال أحمد فرح عقيلان في قصيدة (تراث من نور):

كل شـيء بقضـاء وقـدر ... والليالـي عبـر أي عبـر
أمتي تاريخهـا ذو خطـر ... لـو تأملناه ما كان الخطـر
أمتي أنشـودة علويـة ... كلما رتلهـا المجـد افتخر
تتحلـى بتـراث خالـد ... هو في جيـد المروءات درر
ولها دين أضاءت شمسه ... فاهتدى في نورها ركب البشر
وكتاب أحكمـت آياتـه ... جل من أحكم هاتيك السور
وبيان يكمن السحـر به ... مكمن اللؤلؤ في قاع البحر
أمتي ردت أعاصير الردى ... ما رماها كافـر إلا انتحر
الصليبيون طـاروا شـذرا ... وعلى أسيافنـا مـات التتر
نحن بالإسلام شدنا عزة ... من على صخرتها الكفر انكسر
ونبينا صرح عدل لم يزل ... يرشد الدنيا بأنـوار " عمر "
وغرسنا سرحة العلم به ... تتحف الأخلاق طلا وثمر
وسكنا مهج الناس على ... سدة الرحمة والحق الأغر

...

...

25 سنة الوفرة

تقرر سنة الوفرة أن الكثرة العددية الفاعلة عامل من عوامل استمرار التمكين أو السيادة في الأرض ، فهي تغري الأمم الأخرى بالتحالف مع هذه الأمة ومد جسور العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية معها ، بل ويجرئهم على نقض عهودهم مع الأمة الأقل قوة لصالح الأمة الأقوى طمعاً في حمايتها وأمناً لجانبها ، وتتحقق الوفرة العددية من خلال ارتفاع عدد المواليد وزيادة عدد السكان، أو من خلال عقد التحالفات القوية والمتينة القائمة على المصالح المشتركة العادلة ، وإن كان العامل السكاني هو العامل الأقوى في تحقيق فاعلية الوفرة العددية ، فالتحالفات لا تخلو من الصراعات على نسبة النفوذ التي تطمع فيه كل أمة أو دولة داخل هذا التحالف، غير أن الكثرة العددية في مرحلة التمكين أو الاستخلاف لا بد أن يصاحبها الوفرة المالية المتناسبة مع الكثرة العددية أو الفائضة عنها حتى لا تتحول الكثرة العددية إلى عبء أو عامل صراع داخلي على الموارد ، فالوفرة في الموارد تمثل قوة لتحقيق الاستقرار الداخلي ، والوفرة العددية تمثل قوة للسيادة على الأمم الأخرى ، وبمقدار تحقق واستمرار هذه الوفرة بشقيها بمقدار ما يكون تمدد ونفوذ هذه الأمة وتفوقها على باقي الأمم واستمرار هذا التمدد والنفوذ.

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. **قال ابن عاشور**رحمه الله: **"ومعايش جمع معيشة، وهي ما يعيش به الحي من الطعام والشراب، مشتقة من العيش وهو الحياة، وقال الله تعالى عن بني إسرائيل** : ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[الإسراء:٦]، **وتحدث عن قارون فقال:** ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]، **وقال عن نبي الله سليمان**عليه السلام : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾[النمل:١٦]،**وقال عن ملكة سبأ** : ﴿ إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]

وسخّر الله تعالى للإنسان كثيرًا من المظاهر الكونية، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴿٣٤﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴿٣٥﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ دَآبِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٤-٣٥]، **وقوله تعالى:** ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ : أن النبي ﷺ قال: «إِن اللهَ تَعَالَى يَقُوْلُ لِلعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَلَم أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسْ، وَتَرْبَعْ؟ فَيَقُوْلُ: بَلَى. فَيَقُوْلُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُوْلُ: لاَ. فَيَقُوْلُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي» رواه الترمذي.

يقول ابن عاشور ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ **" وأَرْبَى: أَزْيَدُ، وَهُوَ اسْمُ تَفْضِيلٍ مِنَ الرُّبُوِّ بِوَزْنِ الْعُلُوِّ، أَيِ الزِّيَادَةِ، يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ أَعْنِي كَثْرَةَ الْعَدَدِ، وَالْمَجَازَ أَعْنِي رَفَاهِيَةَ الْحَالِ وَحُسْنَ الْعَيْشِ. وَكَلِمَةُ أَرْبى تُعْطِي هَذِهِ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا فَلَا تَعْدِلُهَا كَلِمَةٌ أُخْرَى تَصْلُحُ لِجَمِيعِ هَذِهِ الْمَعَانِي، فَوَقْعُهَا هُنَا مِنْ مُقْتَضَى الْإِعْجَازِ. وَالْمَعْنَى: لَا يَبْعَثُكُمْ عَلَى نَقْضِ الْأَيْمَانِ كَوْنُ أُمَّةٍ أَحْسَنَ مِنْ أُمَّةٍ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ هِيَ الْمَنْقُوضُ لِأَجْلِهَا وَأَنَّ الْأُمَّةَ الْمَفْضُولَةَ هِيَ الْمُنْفَصِلُ عَنْهَا، أَيْ لَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى نَقْضِ الْحَلِفِ أَنْ يَكُونَ الْمُشْرِكُونَ أَكْثَرَ عَدَدًا وَأَمْوَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَبْعَثُكُمْ ذَلِكَ عَلَى الِانْفِصَالِ عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْكُفَّارِ".** (التحرير والتنوير ١٤، ٢٦٦)

ويقول الشعراوي ﷺ : " والحق سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ..﴾ **أي: جعلنا لبني إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم؛ لأنهم تخلوْا عن منهج ربهم، وتنازلوا عن الشروط التي جعلتْهم عباداً لله ، و(الكَرَّة) أي: الغلبة من الكَرّ والفَرّ الذي يقوم به الجندي في القتال، حيث يُقدم مرة، ويتراجع أخرى، وقوله تعالى:** ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ **، وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال في العالم كله، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات، وفي كل المجالات. ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين، فهم في ذاتهم ضعفاء رغم ما في أيديهم من المال والبنين، ولا بُدَّ لهم لكي تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومي المزعوم في فلسطين، وهذا معنى قوله تعالى:** ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ **فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره، والمراد هنا الدول الكبرى التي ساندت اليهود وصادمت المسلمين".** (تفسير الشعراوي ١٤، ٨٣٦٠)

ويقول ابن خلدون ﷺ : " الفصل الثامن: في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها

على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة، والسّبب في ذلك أنّ الملك إنّما يكون بالعصبيّة، وأهل العصبيّة هم الحامية الّذين ينزلون بممالك الدّولة وأقطارها، وينقسمون عليها فما كان من الدّولة العامّة قبيلها وأهل عصابتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانًا، وكان ملكها أوسع لذلك، واعتبر ذلك بالدّولة الإسلاميّة لمّا ألّف الله كلمة العرب على الإسلام، وكان عدد المسلمين في غزوة تبوك _آخر غزوات النّبيّ ﷺ مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وقحطان ما بين فارس وراجل، إلى من أسلم منهم بعد ذلك إلى الوفاة، فلمّا توجّهوا لطلب ما في أيدي الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر –ملجأ–، فاستبيح حمى فارس والرّوم أهل الدّولتين العظيمتين في العالم لعهدهم، والتّرك بالمشرق، والإفرنجة والبربر بالمغرب، والقوط بالأندلس، وخطوا من الحجاز إلى السّوس الأقصى، ومن اليمن الى التّرك بأقصى الشّمال، واستولوا على الأقاليم السّبعة، ثمّ انظر بعد ذلك دولة زناتة لمّا كان عددهم أقلّ من المصامدة قصّر ملكهم عن ملك الموحّدين لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أوّل أمرهم .. والعصبيّة إنّما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه". (تاريخ ابن خلدون ،١ / ٢٠٤)

يقول الماوردي ﷺ : " لا تصلح الدنيا ولا يقوم عمرانها بدون مال؛ فهو مادة البناء، وزاد السير والتقدم، فكان نموه وخصبه ضرورياً؛ إذ تتسع به الأحوال، ويشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال، فيقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس في التوسع، وتكثر المواساة والتواصل ... الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والسخاء"(أدب الدين والدنيا، ٢٣٢).

وقانون الوفرة عند المسلمين يعارض قانون النُّدرة عند الغربيين، فالنُّدرة قد تقع، لكن لأسباب، وتكون عبارة عن ظاهرة طارئة وليست هي الأصل، والقرآن لا يعترف بدعوى ندرة الموارد المادية وعدم توازنها مع الحاجات، بل يقر بوفرتها بما يكفي لتأمين متطلبات الناس المتعددة والنامية، بتوازن وقدر معلوم. والإيمان بهذا المبدأ واجب، بمقتضى الآيات القرآنية، كقوله تعالى:﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق:٧_١١]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝٢٠ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢١ ﴾[الحجر:١٩-٢١] وقوله ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:١٠]، فعبارات مثل:﴿مَّوْزُون﴾، ﴿بِقَدَرٍ مَّعْلُوم﴾، ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾،﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾،﴿سَوَآء لِّلسَّائلينَ﴾، تجتمع وتتضافر لتقر

حقيقة أن ما سخره الله تعالى للإنسان من الإمكانات المادية، مقدَّرٌ بتوازنٍ وبقدر الحاجة والكفاية، لا زيادة ولا نقصان، متساوٍ مع ما يحتاجه، وينتفع به، و﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وذلك على جهة الدوام؛ فهي متزايدة بقدر زيادة حاجات البشر، على ما بهم إليه الحاجة وما يصلحهم (تفسير الطبري، ٣٩٠/٢٠)، وكما يقول الدكتور رفعت السيد العوضي : " إن مشكلة النُّدْرة غير واردة، حتى في المستقبل ". (عالم إسلامي بلا فقر ، ٢٤)

يقول الدكتور عبدالهادي النجار: " و(قانون الوفرة) هذا لا ينفي وقوع المشكلة ولا يمنعها، لكنه لا يفسر بنظرية (النُّدْرة)، بل:﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]؛ أي أن المشكل من كسب الإنسان ومن سلوكه الخاطئ، وأسلوب استخدامه للإمكانات والموارد؛ "سواء بإهدارها أو بعدم الاستفادة الكاملة منها أو تعطيلها، أو الصراع على الاستيلاء عليها من جانب البعض دون البعض الآخر من بني البشر" (الإسلام والاقتصاد، ٢٠).

ويعلل ابن خلدون مشكلة (النُّدْرة) بقوله: " أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب ... والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين، فإذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم في المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانتفضت الأحوال، وابذعر الناس في الآفاق، من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخرجت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة" (المقدمة، ٢٩٠)

وقال أحمد شوقي:

بالعلم والمال يَبني الناسُ ملكَهمُ لم يُبن ملكٌ على جهلٍ وإقلالِ

26 سنة الأمن العام

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْـتِ الَّـذِى أَطْعَمَهُـمْ مِـنْ جُـوعٍ وَآمَنَهُـمْ مِـنْ خَـوْفٍ﴾ [قريش:٣-٤]، **يقول الدكتو رعبد الكريم بن محمد الطاهر حامدي:" هاتان آيتان من عشرات الآيات التي يأمر فيها الله تعالى عباده بعبادته، ممتنّا عليهم بنعمتي الإطعام من الجوع، والأمن من الخوف، وهذا تنبيه للمسلمين وغيرهم في أقطار المعمورة؛ للتفكّر والتدبّر في مقصد مهمّ من مقاصد القرآن، وهو مقصد حفظ الأمن".**

والأمن يأتي في مقدّمة مقاصد الدّين، فبحفظه يأمن الناس على دينهم، وعباداتهم، وأنفسهم، وأعراضهم، ومعاشهم، وحرياتهم، وغير ذلك مما يتعلق بالحياة، يقول أبو حامد الغزالي ﷺ**: " إن نظام الدِّين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدِّين بالمعرفة والعبادة، لا يتوصل إليهما إلا بصحّة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأمْن"، إلى أن يقول: " فلا ينتظم الدِّين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمّات الضروريات".** (الاقتصاد في الاعتقاد، ٢١).

ولمَّا كان حفظ الأمن مقصودًا شرعًا، فإنه لا يتحقّق إلا إذا كان شاملًا لمظاهر الحياة، ولمَّا كان الإنسان لا يحيا الحياة الآمنة من غير دين متّبع، وعقل سليم مفكّر، ونفس مطمئنة، وعيش كاف، آمنًا على أسرته، وفي مجتمعه، في وطن وعالم آمن من مظاهر القلق والرّعب والخوف، فإن المقصود من الأمن لا يتحقّق إلا برعايته وحفظ صوره.

وقد قرن الله تعالى بين الأمن الغذائي والأمن النفسي في معرِض حديثه عن النعم التي أنعم بها على قريش، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْـتِ ۝٣ الَّـذِى أَطْعَمَهُـم مِّـن جُـوعٍ وَآمَنَهُـم مِّـنْ خَـوْفٍ﴾ [قريش:٣-٤]، **وفي تربية المؤمنين على عدم نشر أخبار السلم أو الحرب، ورفع أمرها لأهل الاختصاص، تحصينًا للأمة من خطر الشائعات، يقول الله تعالى :** ﴿وَإِذَا جَاءَهُـمْ أَمْـرٌ مِـنَ الْأَمْـنِ أَوِ الْخَـوْفِ أَذَاعُـوا بِـهِ وَلَـوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُـولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْـرِ مِنْهُـمْ لَعَلِمَـهُ الَّذِيـنَ يَسْـتَنبِطُونَهُ مِنْهُـمْ وَلَـوْلَا فَضْـلُ اللَّـهِ عَلَيْكُـمْ وَرَحْمَتُـهُ لَاتَّبَعْتُـمُ الشَّـيْطَانَ إِلَّا قَلِيـلًا﴾ [النساء:٨٣]، **وفي بيان منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق الوجود، يقول الله ـسبحانه وتعالىـ:** ﴿وَكَيْـفَ أَخَـافُ مَـا أَشْـرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُـونَ أَنَّكُـمْ أَشْـرَكْتُم بِاللَّـهِ مَـا لَـمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُـمْ سُـلْطَانًا فَأَىُّ

الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢]، [النور:٥٥]،**ويقول سبحانه وتعالى:** ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]، **وذكرالله تعالى ارتباط الإيمان والطمأنينة في نفس المؤمن بذكره تعالى فقال:** ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، **وفي بيان أول قانون لحفظ حقوق اللاجئين، قال** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦]، **وأكد الله تعالى أن الإيمان هو الذي يقودنا إلى الأمن والهداية فقال ـسبحانه وتعالىـ:**﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

وفي الأمن النفسي والاجتماعي والغذائي قال رسول الله ﷺ: « مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربِه، مُعافًى في جسدِهِ عندَهُ قوتُ يومِهِ، فَكَأنَّما حيزت لَهُ الدُّنيا» رواه الترمذي، **وعن أبي هريرة**رضي الله عنه، **قال رسول الله ﷺ : « المسلِمُ مَن سلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ ، والمؤمِنُ من أمِنَه النَّاسُ على دمائِهم وأموالِهم»** رواه الترمذي ، **وعن عبدالرحمن بن أبي ليلى أن رسول الله ﷺ :«لا يحلُّ لمسلمٍ أن يروِّعَ مسلمًا»** رواه أبو داود ، **وفي الأمن الفكري قال رسول الله ﷺ : «من سلَكَ طريقًا يلتمسُ فيهِ علمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طريقًا إلى الجنَّةِ»**.رواه الترمذي، **جاء في الموسوعة الفقهية الكويتية مانصه: « إن الأمن عند فقهاء المسلمين ما به يَطمئنُ الناس على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ويتجه تفكيرهم إلى ما يرفع شأن مجتمعهم وينهض بأمتهم"**(٦/٢٧٠) .

يقول عبدالسلام حمدان:" ورد في القرآن الكريم لفظ (أمن) ومشتقاته في ثمانيةٍ وأربعين موضعًا موزعة على ثلاث وأربعين آية، تسع وعشرون منها مكية في واحد وثلاثين موضعًا، وأربع عشرة آية منها مدنية في سبعة عشر موضعًا، وذلك (في أربع وعشرين سورة: سبع منها مدنية، وسبع عشرة سورة مكية) مما يؤكد حاجة العهد المكي إلى مزيد من الأمن المفقود يومئذ للمؤمنين، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة وقامت لهم دولة أصبح الحديث عن الأمن حسب الحاجة والضرورة".

يقول الدكتور الشاهد البوشيخي: "واللافت للنظر أن لفظ (الأمن) في القرآن الكريم ورد بعدة أشكال، لكنه لم يرد مقيدًا بشيء لا بوصف ولا بإضافة، ومعنى ذلك أنه غير قابل للتبعيض، فالأمن شيءٌ كليٌ شاملٌ لا يقبل التبعيض، فهذه نقطة مهمة وهي أن الأمن نعمةٌ يَتنعم بها الناس، إما

أن تكون وإما أن لا تكون".

ويقول الدكتور عبد الكريم بن محمد الطاهر حامدي: " جاءت نصوص القرآن حافلة بتعظيم شأن الأمْن، وتنوّعت أساليب الدلالة على أهميته في حياة الإنسان، ومن ذلك امتنانه تعالى على المسلمين بنعمة الأمن في البلد الحرام: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥]، ودعا إبراهيم عليه السلام ربّه، أن يجعل البلد الحرام آمنًا، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]، وامتنّ على قريش بهذه النِّعمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، كما امتنّ الله على القوم الغابرين بأمْن القرى والبلدان، كامتنانه على أهل مصر في عهد يوسف عليه السلام بالأمن: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩]، ومن ذلك أمْنُ الطّرقات والسّير فيها ليلًا من غير خوف: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ:١٨]، وكذلك أمْنُ المعَاش: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وهذه القرية هي: مكّة المشرفة، كما أشار القرآن إلى أمْنِ القبيلة والجماعة في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:٣-٤]، والمراد هنا قريش، يقول السعدي رحمه الله:" في الآية دليلٌ على أن رغَد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى"، وكذلك أمْنُ العمران من بناء الدُّور، وإقامة الحدائق، واستثمار الزرع ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[الشعراء:١٤٦- ١٤٨]، كما أشار القرآن إلى الأمن في المعاملات بين الناس، كترْك توثيق الدّيون بالكتابة، والإشهاد، والرّهن، عندما يأمَنُ الناس بعضهم بعضًا، فقال: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]، وامتنّ الله على المؤمنين بالأمَنَة من العدوّ أثناء الحرب: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. هذه بعض النصوص الصّريحة الدلالة على أهمية الأمْن في حياة الإنسان، ومعاشه، وعمرانه، في سلْمِه وحرْبِه، مما يدل دلالة واضحة أنّ حفظ الأمن في الدنيا مقصود شرعًا".

وقد جعل الماوردي رحمه الله الأمنَ أحد القواعد الكبرى التي تصلح بها الدنيا، فإذا فاتَ آلَ أمرها إلى الفساد، فيقول: " فهي أمنٌ عامٌ تطمئن إليه النفوس، وتتيسر فيه الهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس فيه الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم

عن أسباب الموادّ التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم". (أدب الدنيا والدين، ١٥٦)

وحفظ أمْن المجتمع يعني حفظُه من الجانبين المعنوي، والمادي، يقول الدكتور عبدالمجيد النجار: " الحفظ المعنوي لأمْنِ المجتمع المراد به حفظ الأواصر الاجتماعية من التفكّك والتصدّع، المؤدّي إلى هلاك المجتمع. ومعلوم أنّ اجتماع الناس وتلاقيهم سنّة كونية، وظاهرة مدنية، وغاية إنسانية، وحاجة فطرية، وضرورة اجتماعية؛ لتعذّر عيش الفرد وحده، وقضاء حاجاته ومصالحه بمفرده. ولما كان الاجتماع لا مفرّ منه ولا محيص عنه، وكانت النفوس متباينة في السّلوك والمناقب، مختلفة في الطبائع والرغائب، متهافتة على المصالح والمنافع، كانت عرضة للتنازع والتظالم، مما ينشأ عنه الخصام والشّجار المؤدّي في الغالب إلى التّنافر والانقسام، وغير ذلك مما يتنافى ومقاصد الاجتماع. من هنا كان حفظ أمْن الكيان الاجتماعي من التفكّك والانحلال، من المقاصد الدّينية الكلّية التي جاء القرآن بتأمينها إيجادًا وإبقاءً". (مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ،١٥٧)

وأما الحفظ المادّي لأمْن المجتمع فالمراد به (أمْن المعاش) كما يقول الدكتور محمد عمارة رحمه الله : " أي الأمْن على كفاية الإنسان في مأكله ومشربه ومسكنه، وغير ذلك من متطلبات الحياة الاجتماعية". (الاسلام والأمن الاجتماعي، ٢٩)

قانون الفتح (التمدد)

ومفاده أن الدول والأمم الصلبة المتماسكة التي آتاها الله أدوات القوة والتمكين لا تلبث أن تنزع إلى التوسع والتمدد فتتدخل في شؤون الأمم الأخرى أو تغزوها ، وبالأخص المجاورة لها ، ويكون تمددها مادياً – عسكرياً – أو معنوياً – أو أيديولوجياً –إما تمددٌ على الأرض أو تمددٌ ثقافي (التبعية الثقافية)، ويكون تمددها إما بسبب منها غير مشروع (عدوان سافر لنهب موارد أو سيطرة على مواقع) أو بأسباب من تلك الأمم غير مشروعة (استرداد حق أو رد عدوانها أو كسر شوكتها.. إلخ) ، فالدول كما تقرر في علم الجيوبوليتك: كائنات متحركة وليست ثابتة تتمدد في فترات القوة، وتنكمش في فترات الضعف، وهذه السُّنة مقابلة لسُنة الانكماش والنقصان الذي يصيب الأمم الهشة والضعيفة، والمحرك لهذه السنة تعارض المصالح وندرة الموارد والاختلاف بين الأمم والذي يحتم الصدام بينها، غير أن هذا التمدد إذا كان له أسباب مشروعة قائمة على الحق والعدل فيسمى فتحاً كما كان في عصر النبي ﷺ والعصور الراشدة ، وإن كان قائماً على السطو وأكل حقوق المستضعفين والاستكبار في الأرض فيسمى (استخراباً) كما كان في عهود الحملات الصليبية وعهود الاحتلال الغربي وفي عصور الإسلام المتأخرة مع الحكام الطامعين والمستبدين ، فالمعيار كائن في الغاية من التمدد وليس في هوية القوة الغازية ، وهذه السنة كما أشرنا تالية لسنة التمكين للأمم وامتلاكها أدوات القوة الفائضة عن قدرتها على حماية نفسها .

قال تعالى مبشراً بالفتح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ **[المائدة: ٥١، ٥٢] فهنا يخبر الله تعالى عن جماعة من المنافقين أنهم كانوا يبادرون في مودة اليهود لما في قلوبهم من الشكِّ والنفاق، ويقولون: إنما نوادُّهم خشية أن يظفروا بالمسلمين فيصيبونا معهم، قال الله تعالى ذكره: فعسى الله أن يأتي بالفتح –أي فتح (مكة) – وينصر نَبِيَّه، ويُظْهِر الإسلام والمسلمين على الكفار، أو يُهيِّئ من الأمور ما تذهب به قوةُ اليهود والنَّصارى، فيخضعوا للمسلمين، فحينئذٍ يندم المنافقون على ما أضمروا في أنفسهم من موالاتهم.** (التفسير الميسر ،١ / ١١٧)

وتحقق بعض وعد الله في غزوة بني قريضة: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]

وقال تعالى عن أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية واعداً إياهم بفتح خيبر: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ١٨ – ٢٣]

ووعدهم بفتح مكة فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح : ٢٧]، **وقال تعالى في صفة الفاتحين:** ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]

ووعد بظهور هذا الدين (الإسلام) على الدين كله بفتح العقول والقلوب لقبوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣]، **وعن سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ ﷺ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»** صحيح البخاري (٥ / ١١٠) ، **وعن عمرو بن عوف، ، قال: "خرجت لنا من الخندق صخرة بيضاء مدورة فكسرت حديدنا وشقت علينا، فشكونا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاء ما بين لا بتي المدنية، حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ، ثم ضربها الثانية فصدعها وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر، ثم ضربها الثالثة، وبرق منها برقة أضاء ما بين لابتيها فكبر، فقلنا: يا رسول الله، قد رأيناك تضرب فيخرج منها برق كالموج ورأيناك تكبر؟! فقال: «أضاء لي في الأولى**

قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثانية قصور الحمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء في الثالثة قصور صنعاء، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا بالنصر، فقال المنافقون: يخبركم محمد أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا؟!» فنزل: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴿١٢﴾﴾". (أخرجه ابن جرير في تفسيره [٢١/ ١٣٣- ١٣٤] ، وابن أبي حاتم كذلك [٩/ ٣١١٧] رقم ١٧٦٠٣، والحاكم في المستدرك [٣/ ٥٩٨] ، والبيهقي في الدلائل [٣/ ٤١٨]) شرف المصطفى (٤ / ١٠)

يقول الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي عن البشرى بالفتح يوم الحديبية: " تالله لقد رضي الله عن المؤمنين المخلصين، الذين بايعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحت الشجرة بيعة الرضوان، بالحديبية، على قتال قريش وعدم الفرار، بايعهم النبي على الموت، وكان عددهم في الأصح ألفاً وأربع مائة. وسميت بيعة الرضوان، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ﴾ ورضاه لأنه تعالى علم ما في قلوبهم من الإيمان والإخلاص، والسمع والطاعة، فأنزل الطمأنينة وسكون النفس عليهم، وجازاهم بفتح خيبر، بعد انصرافهم من الحديبية، ثم أتبعه بفتح مكة وسائر الأقاليم المجاورة. وأثابهم أيضا مغانم كثيرة يأخذونها، وهي غنائم خيبر، وكان الله وما يزال قوياً غالباً قادراً، مدبرًا أمور خلقه، على وفق الحكمة والسداد، ولو بادركم بالقتال كفار قريش بالحديبية، لنصر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزموا هزيمة منكرة، فارّين هاربين، ثم لا يجدون حارساً وحامياً، يحرسهم ويواليهم على قتالكم، ولا ناصراً معينا ينصرهم عليكم ، تلك سنة الله الدائمة في نصره جيش الإيمان على جيش الكفر، وإعلاء كلمة الحق وإبطال الباطل، على الرغم من عدم تكافؤ القوى، مثل النصر يوم وقعة بدر، وتلك السنة مستمرة ثابتة، لا تغيير لها.

والله تعالى بكرمه وفضله: هو الذي كف أيدي المشركين عن المسلمين، وأيدي المسلمين عن المشركين، لما جاؤوا يصدّون رسول الله ﷺ وجنوده عن البيت الحرام، عام الحديبية، في داخل مكة وحدودها، حيث هبط ثمانون رجلاً، كما تقدم، على النبي ﷺ من جبل التنعيم، متسلحين بكامل أسلحتهم، يريدون مباغتة النبي ﷺ، فأخذهم المسلمون، ثم تركوهم. وهذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين، بكف المشركين عنهم، وكف المسلمين عن قتال أعدائهم. وكان الله وما يزال بصيراً بأعمال عباده المؤمنين والمشركين، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

وكانت هذه الحملة مرسلة من قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فلما أحسّ بهم المسلمون،

بعث رسول الله ﷺ في أثرهم خالد بن الوليد، وسماه حينئذ (سيف الله) في جملة من الناس، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة، وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ فمنّ عليهم وأطلقهم، فهذا هو كفّ الله تعالى أيديهم عن المسلمين بالرعب، وكفّ أيدي المسلمين عنهم بالنهي عن القتال في بيوت مكة وغيرها، وذلك هو (بطن مكة)" . التفسير الوسيط للزحيلي (٣ / ٢٤٦٠)

وعلق ابن عاشور رحمه الله على آية الوعد بالفتح في سورة (الفتح) فقال: "فَعُلِمَ أَنَّ الْآيَةَ أَشَارَتْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَغَانِمِ: نَوْعٌ مِنْ مَغَانِمَ مَوْعُودَةٍ لَهُمْ قَرِيبَةِ الْحُصُولِ وَهِيَ مَغَانِمُ خَيْبَرَ، وَنَوْعٌ هُوَ مَغَانِمُ مَرْجُوَّةٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُعَيَّنٍ وَقْتُ حُصُولِهَا، وَمِنْهَا مَغَانِمُ يَوْمِ حُنَيْنٍ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْغَزَوَاتِ، وَنَوْعٌ هُوَ مَغَانِمُ عَظِيمَةٌ لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ نَوَالُهَا قَدْ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَعَلَّهَا مَغَانِمُ بِلَادِ الرُّومِ وَبِلَادِ الْفُرْسِ وَبِلَادِ الْبَرْبَرِ". (التحرير والتنوير ، ٢٦ / ١٨١)

ويقول الشاعر محمد إقبال رحمه الله عن فتوحات المسلمين:

من ذا الذي رفع السيوف ليرفع اسمك فوق هامات النجوم فخارا

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا

لم تنس أفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارا

كنا جبالاً في الجبال وربما سرنا على موج البحار بحارا

لم نخش طاغوتاً يحاربنا ولو نصب المنايا حولنا أسوارا

ورؤوسنا يا رب فوق أكفنا نرجو ثوابك مغنماً وجوارا

ندعو جهاراً لا إله سوى الذي خلق الوجود وقدَّر الأقدارا

كنا نرى الأصنام من ذهبٍ فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا

لو كان غير المسلمين لحازها ذهباً وصاغ الحلي والدينارا

وكأن ظل السيف ظل حديقةٍ خضراء تنبت حولها الأزهارا

28 سنة الانتقاء

تقرر هذه السنة أن الأمم إذا امتلكت أدوات القوة وحققت الاستقرار الداخلي (سنة التمكين) ، ثم انتقلت للتوسع جغرافياً وثقافياً على حساب الأمم الأضعف (سنة التمدد) ، فإنها لا محاله ستصطدم بأمم قوية ومنافسة لها على السيادة في الأرض، وفي هذه الحالة تسري (سنة الانتقاء) التي تعطي الغلبة لأمة على بقية الأمم في النفوذ الأكبر على باقي الأمم ، وإن كان ذلك لا يلغي وجود أمم قوية أخرى لها مساحة من النفوذ والتمدد ، ويتم هذا الانتقاء على أسس متعددة منها الكثرة العددية والمالية (سنة الوفرة) ، ومنها مدى الالتزام الأخلاقي (سنة الصلاح) ، ومنها التصحيح الداخلي (سنة التغيير) ، ومنها مدى تغلغل الدين في هذه الأمم وخاصة الدين الحق (سنة الدِّين) والتي يكون معها المدد السماوي (سنة التأييد الإلهي) ، وعلى مقدار توفر هذه المعايير خاصة وجملة سنن النهوض عامة يكون الانتقاء للأمة التي تسود الأمم (الاستخلاف) .

قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، **قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، **وقال تعالى:** ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، **وقال لنبيه يوسف عليه السلام بعد ما لقيه من صنوف البلاء:** ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، **وحكى عن موسى عليه السلام:** ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف : ١٢٨] ، **وقال تعالى تعقيباً على هلاك فرعون وقارون:** ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣]

وحكى عن طالوت: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩ – ٢٥١]، **وقال تعالى**

لحبيبنا محمدﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، **وقال أيضاً**: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود : ٤٩]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عَنِ النَّبِيِّﷺ**، قَالَ: « يَأْتِي زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ**ﷺ**؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ، فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ**ﷺ**؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ**ﷺ**؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ »** (صحيح البخاري ، ٤ / ٣٧).

يقول رشيد رضا ﷺ: **"(أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) هُوَ الْأَسَاسُ الْأَعْظَمُ لِسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ فِي فَوْزِ الْجَمَاعَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ فِي مَقَاصِدِهَا، وَغَلَبِهَا عَلَى خُصُومِهَا وَمُنَاوِئِيهَا، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الْأَسَاسُ الرَّاسِخُ لِفَوْزِ الْأَفْرَادِ فِي أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ مَالِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْبَلِيغَةُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ الْكُبْرَى فِي جَمْعِ الْحَقَائِقِ الْكَثِيرَةِ، فِي الْمَقَاصِدِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي كَلِمَةٍ وَجِيزَةٍ".** (تفسير المنار ،١٢ / ٢٠٠)

ويقول أيضاً: (وَمَدَارُ هَذِهِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِي التَّنَازُعِ بَيْنَ الْأُمَمِ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا أَوْ تَسْتَعْمِرُهَا لِلْمُتَّقِينَ، أَيِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْبَابَ الضَّعْفِ وَالْخِذْلَانِ وَالْهَلَاكِ، كَالْيَأْسِ مِنْ رُوحِ اللهِ وَالتَّخَاذُلِ وَالتَّنَازُعِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَالظُّلْمِ وَالْفِسْقِ، وَيَتَلَبَّسُونَ بِضِدِّهَا، وَبِسَائِرِ مَا تَقْوَى بِهِ الْأُمَمُ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، وَأَعْلَاهَا الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ مَهْمَا عَظُمَتْ، وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا أَعْظَمُ مَا تَتَفَاضَلُ بِهِ الْأُمَمُ مِنَ الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ بِاتِّفَاقِ الْمَلَاحِدَةِ وَالْمِلِّيِّينَ مِنْ عُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ وَقُوَّادِ الْحُرُوبِ. وَقَدْ تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ (٢١: ١٠٥) **وَإِنَّمَا الصَّالِحُونَ هُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَسَائِرِ شَرَائِعِ اللهِ وَسُنَنِهِ فِي الْعُمْرَانِ، وَهِيَ بِمَعْنَى مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الِاجْتِمَاعِ (بَقَاءَ الْأَصْلَحِ أَوِ الْأَمْثَلِ فِي كُلِّ تَنَازُعٍ) وَيَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَثَلُ الْمَشْهُورُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ﴾ (١٣: ١٧)

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ تَرَى بَعْضَ الشُّعُوبِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسِيَادَةِ الْأَجَانِبِ عَلَيْهَا يَائِسَةً مِنِ اسْتِقْلَالِهَا وَعِزَّتِهَا، بَلْ مِنْ حَيَاتِهَا الْمِلِّيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ بِمَا تَرَى مِنْ خِفَّةِ مَوَازِينِهَا وَرُجْحَانِ

مَوَازِينِ السَّائِدِينَ عَلَيْهَا فِي الْقُوَى الْمَادِّيَّةِ وَالْآلِيَّةِ، وَاسْتِدْلَالِ هَؤُلَاءِ السَّائِدِينَ عَلَيْهَا لَهَا، جَهْلًا مِنْهَا بِسُنَّةِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي بَيَّنَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَغَفْلَتِهَا عَنْ كَوْنِ رُجْحَانِ قُوَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَهْرِهِ لَهُمْ كَانَا فَوْقَ رُجْحَانِ قُوَى سَائِدِيهَا عَلَيْهَا وَقَهْرِهِمْ إِيَّاهَا، وَفِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْعِبَرِ التَّارِيخِيَّةِ بِسُقُوطِ بَعْضِ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ مَا لَا يَقِلُّ عَنِ الْعِبْرَةِ بِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ الْقَدِيمِ). (تفسير المنار ،٩ / ٤٨١)

ويقول ابن خلدون ﷺ: "من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة .. والملك والسّياسة إنّما كانا للإنسان من حيث هو إنسان؛ لأنّهما للإنسان خاصّة لا للحيوان فإذا خلال الخير فيه هي الّتي تناسب السّياسة والملك ، إذ الخير هو المناسب للسّياسة ، وقد ذكرنا أنّ المجد له أصلٌ يبنى عليه وتتحقّق به حقيقته وهو العصبيّة والعشير وفرع يتمّم وجوده ويكمله وهو الخلال، وإذا كان وجود العصبيّة فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب فما ظنّك بأهل الملك الّذي هو غاية لكلّ مجد ونهاية لكلّ حسب ، وأيضا فالسّياسة والملك هما كفالة للخلق وخلافة للّه في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم ، وأحكام الله في خلقه وعباده إنّما هي بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشّرائع ، .. فمن حصلت له العصبيّة الكفيلة بالقدرة وأونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيّأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصّلاحيّة لذلك. .. فإذا نظرنا في أهل العصبيّة وما حصل لهم من الغلب على كثيرٍ من النّواحي والأمم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو عن الزّلّات، والاحتمال من غير القادر والقِرَى للضّيوف وحمل الكلّ وكسب المعدم، والصّبر على المكاره، والوفاء بالعهد، وبذل الأموال في صون الأعراض، وتعظيم الشّريعة، وإجلال العلماء الحاملين لها، والوقوف عند ما يحدّدونه لهم من فعل أو ترك، وحسن الظّنّ بهم، واعتقاد أهل الدّين والتّبرّك بهم، ورغبة الدّعاء منهم، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم، والانقياد إلى الحقّ مع الدّاعي إليه، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم والتّبذّل في أحوالهم والانقياد للحقّ، والتّواضع للمسكين واستماع شكوى المستغيثين، والتّديّن بالشّرائع والعبادات، والقيام عليها وعلى أسبابها، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أنّ هذه خلق السّياسة قد حصلت لديهم واستحقّوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم أو على العموم، وأنّه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسب لعصبيّتهم، وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم ولا وجد عبثاً منهم، والملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيّتهم، فعلمنا بذلك أنّ الله تأذّن لهم بالملك وساقه إليهم .." (تاريخ ابن خلدون ، ١ / ١٧٨)

وأضاف ابن خلدون ﷺ: (الفصل الخامس في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، والسّبب في ذلك كما قدّمناه أنّ الصّبغة الدّينيّة تذهب

بالتنافس والتّحاسد الّذي في أهل العصبيّة وتفرد الوجهة إلى الحقّ فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأنّ الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم وهم مستميتون عليه، وأهل الدّولة الّتي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقيّة الموت حاصل فلا يقاومونهم، وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم، ويعاجلهم الفناء بما فيهم من التّرف والذّلّ كما قدّمناه، واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدّين وفسدت كيف ينتقض الأمر ويصير الغلب على نسبة العصبيّة وحدها دون زيادة الدّين فتغلب الدّولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزّائدة القوّة عليها الّذين غلبتهم بمضاعفة الدّين لقوّتها ولو كانوا أكثر عصبيّة منها وأشدّ بداوة واعتبر هذا في الموحّدين مع زناتة لمّا كانت زناتة أبدى –أشد بداوة– من المصامدة وأشدّ توحّشاً وكان للمصامدة الدّعوة الدّينيّة باتّباع المهديّ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوّة عصبيّتهم بها فغلبوا على زناتة أوّلا واستتبعوهم وإن كانوا من حيث العصبيّة والبداوة أشدّ منهم فلمّا خلوا من تلك الصّبغة الدّينيّة انتقضت عليهم زناتة من كلّ جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم وَالله غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ. (تاريخ ابن خلدون ،١ / ١٩٨).

وقال الشاعر مشبب أحمد القحطاني:

السّقْمُ دَبّ بأُمةٍ تركتْ دروبَ الأنبياءْ ...

لو يعلمُ الوسنانُ مِنّا أن في التّقْوى شِفاءْ ...

لاستيقظَ اللّيْثُ الهصورُ وسارَ في جَيْشِ الفِداءْ ...

قُمْ يا رعيلَ اليومِ وارفَعْ ما تهدّم من بناءْ ...

هذي مُصيبَةُ أُمّتي ولعلّنا نَجِدُ الدّواءْ ...

إنْ طالَ ليلُ الآملينَ فَسَوفَ يُسْفر عَن ضياءْ ...

هَلاّ رَفعنا بالدّعاء أكفّنا نحو السّماءْ ...

وَمَضَتْ رواحِلُنَا على دَرْبِ البطولةِ والفِداءْ ...

يكفي من التاريخِ عاراً أن يسودَ الأشقياءْ ...

29 سنة الاستخلاف (السيادة)

تقرر هذه السنة أن الأرض لا تخلو من وجود أمة مستخلفة في الأرض تكون لها السيادة على باقي الأمم ، وتكون لها النفوذ الأكبر والكلمة الفصل، والتي تذعن معها الأمم الأخرى وحتى القوية منها وتسلم لهذه الأمة رهبة ورغبة دون أن تحتاج معه هذه الأمة لاستخدام القوة المادية في أغلب خلافاتها ويكفيها التهديد والتلويح باستخدام القوة، وإذا استخدمت القوة في بعض المرات فهي قادرة على فرض إرادتها ، وتأتي هذه المرحلة بعد مرحلة التمكين التي تمتلك فيها الأمة أدوات القوة وتخوض فيها غمار المواجهة الحتمية مع القوى الأخرى في صراع السيادة وفرض النفوذ، والفرق بين هذه السنة وسنة الفتح ؛ أن سنة الفتح تمددٌ جغرافي أو ثقافي أما السيادة فتمددٌ في النفوذ –سياسي أو اقتصادي– وانتقاصٌ لسيادة الدول والأمم الأخرى .

قال تعالى عن آدمعليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠]، **وقال عن نوح**عليه السلام **ومن تبعه:** ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس : ٧٣] **وقال هود**عليه السلام **لقومه** : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأعراف : ٦٩]، **ثم قال:** ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٧]، **وقال صالح**عليه السلام **لقومه:** ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ) [الأعراف : ٧٤] **وقَالَ مُوسَى**عليه السلام **لِقَوْمِهِ:** ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩]، **وقال تعالى لداود**عليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص : ٢٦]

وحكى تعالى عن نفوذ سليمان عليه السلام وتمام سيادته ما تستجيب له الأمم بعصا التهديد وسندان التفوق الحضاري: (﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧]، **فاستجابت الملكة بلقيس على عظم ملكها بل واتبعته في نهاية الأمر مراد سليمان عليه السلام:** ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤١ - ٤٤]

وقال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: ٥٥]

يقول رشيد رضا رحمه الله: "سُنَّةُ اللهِ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَاسْتِخْلَافِ الْأُمَمِ فِيهَا، وَالِاسْتِيلَاءِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ. فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَنَا فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ قَوْمِهِ أَنَّ وَطْأَةَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ اشْتَدَّتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصَرَّحَ بِوُجُوبِ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى تَقْتِيلِ أَبْنَائِهِمْ، وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ؛ لِأَجْلِ أَنْ تَنْقَرِضَ الْأُمَّةُ بَعْدَ اسْتِذْلَالِ مَنْ يَبْقَى مِنَ النِّسَاءِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ الرِّجَالُ، وَمَا ازْدَادُوا إِلَّا ذُلًّا وَخُنُوعًا - وَهُمْ مِئَاتُ الْأُلُوفِ - كَمَا هُوَ شَأْنُ الشُّعُوبِ الْجَاهِلَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ مُوسَى أَنْ يَمْتَلِخَ ذَلِكَ الْيَأْسَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ بِمَا حَكَاهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أَيْ بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَتْ رَهْنَ تَصَرُّفِ الْمُلُوكِ وَالدُّوَلِ بِقُدْرَتِهِمُ الذَّاتِيَّةِ فَتَدُومُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ، وَلَهُ سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى سُنَّةٌ فِي سَلْبِهَا مِنْ قَوْمٍ، وَجَعْلِهَا إِرْثًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ وَسُلْطَانِهِ". (تفسير المنار، ٩ / ٤٨١)

قال ابن مسكويه متحدثاً عن زمن الرشيد: "انتقض الصلح بين المسلمين وبين الروم لأنّ ملك الروم الذي كان صالح المسلمين على الجزية وحمل مالاً للصلح قتل ملك الروم نقفور، وكان نقفور هذا من أولاد جفنة من غسّان، فلمّا ملك واستوسقت له الأمور، كتب إلى الرشيد: - "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أمّا بعد، فإنّ الملك الذي كان قبلي كان يحمل إليك من

أمواله ما كنت حقيقا بحمل أمثاله إليه، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أمواله وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك وإلّا فالسيف بيننا وبينك". فلمّا قرأ الرشيد الكتاب، استفزّه الغضب حتّى لم يمكن أحدا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرّق جلساؤه خوفا من زيادة قول يكون منهم، واستعجم الرأى على الوزير أن يشير عليه أو يتركه برأيه ، فدعا هارون بدواةٍ، وكتب على ظهر الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام". ثمّ شخص من يومه وسار حتّى أناخ بباب هرقل، ففتح وغنم واصطفى وأفاد واصطلم وخرّب وأحرق، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤدّيه كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلمّا رجع من غزوته وصار بالرقّة نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وكان البرد شديداً، فيئس نقفور من رجعته إليه، وجاء الخبر بارتداده عمّا أخذ عليه، فما تهيّأ لأحد إخباره بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرّة فى مثل تلك الأيّام، فاحتيل له بشاعرٍ فقال:

نقـض الّذى أعـطيتـه نـقفور وعليـه دائـرة البـوار تـدور

فلمّا فرغ من إنشاده، قال الرشيد: "أو قد فعل نقفور؟" وعلم أنّ الوزراء قد احتالوا له فى ذلك. فكّر راجعاً فى أشدّ محنة وأعظم كلفة حتّى أناخ بفنائه فلم يبرح حتّى رضى وبلغ ما أراد. (تجارب الأمم وتعاقب الهمم ،٣ / ٥٤٩)

وذكر أَبُو الْفضل الرياشي أنه كتب ملك الرّوم إِلَى المعتصم يتهدده فَأمر بجوابه فَلَمَّا قرئَ عَلَيْهِ الْجَواب لم يرضه وَقَالَ لِلْكَاتِبِ اكْتُبْ بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم أما بعد: "فقد قَرَأت كتابك وفهمت خطابك وَالْجَوَاب مَا ترى لَا مَا تسمع وَسَيعْلَمُ الْكَافِر لمن عُقبى الدَّار"، قَالَ أَبُو بكر الْخَطِيب: "غزا المعتصم بِلَاد الرّوم سنة ثَلَاث وَعشْرين وَمِائَتَيْنِ فأنكى فِي الْعَدو نكاية عَظِيمَة وَنصب على عمورية المجانيق فَقَالَ فِي ذَلِك أَبُو تَمام الطَّائِي:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْباءً مِنَ الكُتُـبِ فِي حَدِّه الحَدُّ بَين الجِدِّ واللعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي (٣ / ٤٥٠)

يقول سيد قطب﵀: "إنّ الاستخلاف في الأرض قدرةٌ على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرةٌ على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرةٌ على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان". (في ظلال القرآن، ،٤/ ٢٥٢٨).

30 سنة الرفاه

تقرر هذه السنة أن تصحيح الأمم لمسارها بإقامة الشرائع السماوية بما فيها من قوانين أخلاقية وتنظيمية واجتماعية إيماناً بصوابيتها وفاعليتها ودورها في تقليم أظافر الظالمين والعالين في الأرض، ومكافحة كل ألوان الفساد الاجتماعي والأخلاقي، يوصل الأمم إلى حالة (الرفاه) المتمثلة في الأمن الشامل مادياً ومعنوياً ، النفسي والغذائي ، ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ ، وعلى قدر إقامة الأمم لقوانين السماء على قدر تحقق هذا الأمن والرخاء في كل نواحي الحياة ، غير أن مرحلة (الرفاه) لا بد أن تسبقها مرحلتا التمكين والسيادة على الأمم (الإستخلاف)، فالرفاه هي حالة الذروة التي تصل إليها الأمة من الفائض الاقتصادي بعد تمام النفوذ السياسي والعسكري، والذي سماه القرآن البركات من السماء والأرض، فمن السماء العطايا الإلهية من ثروات بحرية وزراعية وحيوانية، ومن الأرض القدرة على الاستفادة المثلى من خيراتها باكتشاف وتفعيل السنن الكونية، أو ما تجنيه من الأمم الأخرى بالاستثمار أو النفوذ والتبادل الاقتصادي، والقدرة على تأمين ثرواتها وطرق تجارتها ، بل يسير فيها مواطنو هذه الأمة في سائر البلدان أو أغلبها بأمان تام دون خشية من عدوان الأمم الأخرى عليهم نظر لما وصلت إليه دولتهم من نفوذ ومهابة في نفوس الأمم الأخرى، ولكن ليس بعد هذا التمام إلا النقصان لندخل في دورة أخرى متمثلة في محاولة هذه الأمم المتسيدة في الأرض المحافظة على بقاءها في الذرة من خلال الأخذ بآليات وقوانين الاستمرار .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، **ويقول رشيد رضا**ﷺ: **"هذا بَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِمَا دَعَا اللهُ إِلَيْهِ وَالتَّقْوَى فِي الْعَمَلِ بِشَرْعِهِ فِعْلًا وَتَرَكًا سَبَبٌ اجْتِمَاعِيٌّ طَبِيعِيٌّ لِسَعَةِ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَخَيْرَاتِهَا عَلَى الْأُمَّةِ"** تفسير المنار (٩ / ٤٨٠) **وقال تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦]، **وقال نوح**ﷺ **لقومه:** ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠، ١٢]، **ولقد وصلت مملكة داود وسليمان عليهما السلام إلى حال الرفاه:** ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ

أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٠ - ١٣]

كما وصل أهل مصر كذلك للرفاه بالتزام خطة يوسف عليه السلام بعد أن كان لهم التمكين قبل ذلك إلى ما ذكره تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٧ - ٥٠]

قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: "مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ بَعْدَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ خَائِفًا هُوَ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانُوا فِيهَا خَائِفِينَ يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ فِي السِّلَاحِ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ السِّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: لَا تَغْبُرُونَ (أَيْ لَا تَمْكُثُونَ) إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَ عَلَيْهِ حَدِيدَةٌ" (التحرير والتنوير، ١٨ / ٢٨٢)، **وعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ، بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ، ثُمَّ لاَ يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ»** صحيح البخاري (٢ / ١٠٩)، صحيح مسلم (٢ / ٧٠٠)، **وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ، فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبُّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ، فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لاَ أَرَبَ لِي»** صحيح البخاري (٢ / ١٠٨)، **في رواية أخرى، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ»**

صحيح مسلم (٢ / ٧٠١)

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه مِنْ عِنْدِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه بِثَمَانِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لِي: " بِمَاذَا قَدِمْتَ؟ " قُلْتُ: "قَدِمْتُ بِثَمَانِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ" , فَقَالَ: " إِنَّمَا قَدِمْتَ بِثَمَانِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ " , قُلْتُ: بَلْ قَدِمْتُ بِثَمَانِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، قَالَ: قَالَ: فَبَاتَ عُمَرُ لَيْلَتَهُ أَرِقًا، حَتَّى إِذَا نُودِيَ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا نِمْتَ اللَّيْلَةَ، قَالَ: كَيْفَ يَنَامُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَقَدْ جَاءَ النَّاسَ مَا لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِمْ مِثْلُهُ مُنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ، فَمَا يُؤْمِنُ عُمَرَ لَوْ هَلَكَ وَذَلِكَ الْمَالُ عِنْدَهُ فَلَمْ يَضَعْهُ فِي حَقِّهِ. فَلَمَّا صَلَّى الصُّبْحَ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ

لَهُمْ: " إِنَّهُ قَدْ جَاءَ النَّاسَ اللَّيْلَةَ مَا لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِمْ مُنْذُ كَانَ الْإِسْلَامُ , وَقَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا فَأَشِيرُوا عَلَيَّ، رَأَيْتُ أَنْ أَكِيلَ لِلنَّاسِ بِالْمِكْيَالِ " , فَقَالُوا: "لَا تَفْعَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنَّ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ وَيَكْثُرُ الْمَالُ، وَلَكِنْ أَعْطِهِمْ عَلَى كِتَابٍ، فَكُلَّمَا كَثُرَ النَّاسُ وَكَثُرَ الْمَالُ أَعْطَيْتَهُمْ عَلَيْهِ.. فَوَضَعَ الدِّيوَانَ"

(السنن الكبرى للبيهقي ،٦ / ٥٩١).

يقول ابن عاشور ﷺ: "وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ وَاثِقِينَ بِالْأَمْنِ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدَّمَ عَلَى وَعْدِهِمْ بِالْأَمْنِ أَنْ وَعَدَهُمْ بِالِاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ وَتَمْكِينِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ فِيهِمْ تَنْبِيهًا لَهُمْ بِأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ أَنَّهُ لَا تَأْمَنُ أُمَّةٌ بَأْسَ غَيْرِهَا حَتَّى تَكُونَ قَوِيَّةً مَكِينَةً مُهَيْمِنَةً عَلَى أَصْقَاعِهَا. فَفِي الْوَعْدِ بِالِاسْتِخْلَافِ وَالتَّمْكِينِ وَتَبْدِيلِ الْخَوْفِ أَمْنًا إِيمَاءٌ إِلَى التَّهَيُّؤِ لِتَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ مَعَ ضَمَانِ التَّوْفِيقِ لَهُمْ وَالنَّجَاحِ إِنْ هُمْ أَخَذُوا فِي ذَلِكَ" (التحرير والتنوير ،١٨ / ٢٨٢) ، وذكر رزق الله بن يعقوب شيخ: "أن هارون الرشيد من أعقل الخلفاء العباسيين وأكملهم رأياً وتدبيراً وفطنة وقوة واتساع مملكة وكثرة خزائن بحيث كان يقول للسحابة: أمطري حيث شئت فإن خراجك سيأتي إلي" (مجاني الأدب في حدائق العرب ،٣ / ١٠٦) ، وفي قول مُوسَى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ يقول الشعراوي ﷺ : " والزينة: هي الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، فاستبقاء الحياة يكون بالمأكل لأي غذاء يسدُّ الجوع، وبالمشرب الذي يروي العطش، وأما إن كان الطعام منوَّعاً فهذا من ترف الحياة، ومن ترف الحياة الملابس التي لا تستر العورة فقط، بل بالزي الذي يتميز بجودة النسج والتصميم والتفصيل، وكذلك من ترف الحياة المكان الذي ينام فيه الإنسان، بحيث يتم تأثيثه بفاخر الرياش، ولكن الضرورة في النوم يكفي فيها مكان على الأرض، وأي فراش يقي من برودة الأرض أو حرارتها، فالزائد عن الضرورات هو زينة الحياة، والزينة تأتي من الأموال، والرصيد الأصيل في الأموال هو الذهب، ثم تأخذ الفضة المرتبة الثانية، واذا نظرت إلى زينة الفراعنة تجد قناع (توت عنخ آمون) آية في الجمال، وكذلك كانت قصورهم في قمة الرفاهية، ويكفي أن ترى الألوان التي صنعت منها دهانات الحوائط في تلك الأيام؛ لتعرف دقة الصنعة ومدى الترف، الذي هو أكثر بكثير من الضرورات". (تفسير الشعراوي ،١٠ / ٦١٦٧)

8,123 طالباً وطالبة يدرسون في الحلقات القرآنية.

320 طالباً يدرسون في مركز معاذ القرآني التنموي.

79 مجازاً ومجازة بالروايات والقراءات القرآنية.

134 طالباً وطالبة يدرسون في مراكز العلوم الشرعية.

347 حافظاً وحافظة تخرجوا من الحلقات القرآنية.

89 طالباً وطالبة حصلوا على مراكز متقدمة في الثانوية العامة.

4,602 مستفيداً من البرامج التأهيلية في المجال القرآني.

2,295 مستفيداً من البرامج التأهيلية في العلوم الشرعية.

235 مستفيداً من برامج منصة معاذ الإلكترونية.

210 طالباً وطالبة استفادوا من برنامج رعاية المواهب الطلابية.

56 مشاركاً في مسابقة معاذ العامة (شباب القرآن 3).

24,934 مستفيداً من البرامج الثقافية والدعوية.

2,581 مستفيداً من الأنشطة الترفيهية والرياضية.

17,733 مستفيداً من أنشطة وبرامج موسمية أقامتها الجمعية.

2,474 نسخة موزعة من المصحف الشريف.

5,760 نسخة موزعة من الكتب العلمية الصادة عن الجمعية.

الحصاد التراكمي ...

- 8,123 طالباً وطالبة يدرسون في 541 حلقة قرآنية.
- 4,536 حافظاً وحافظة تخرجوا من الحلقات القرآنية.
- 462 مجازاً ومجازة بالروايات والقراءات القرآنية.
- 160 عالماً وداعية تخرجوا من مراكز العلوم الشرعية.
- 620 طالباً تخرج من مركز معاذ القرآني التنموي.
- 89 مسجداً تم بناؤها باشراف وتنفيذ الجمعية.
- 83,865 نسخة من المصحف الشريف تم توزيعها.
- 77,576 نسخة تم توزيعها من الكتب العلمية الصادرة عن الجمعية.
- 109,680 مستفيداً من أنشطة أخرى متنوعة اقامتها الجمعية خلال الثلاثة الأعوام الأخيرة.

المركز الرئيس: شارع جمال تعز - اليمن
04259087/64
04250845
www.muath.org
Muath.t.y

جمعية معاذ العلمية

لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية

معاذ

جمعية معاذ العلمية لخدمة القرآن الكريم والسنة النبوية

أصالة النشأة .. وسمو الهدف

www.muath.org

muath.t.y

المركز الرئيس: شارع جمال تعز - اليمن

+967711120996 حساباتنا البنكية

+9674250845

مصرف اليمن البحرين الشامل 5699480

بنك سبأ الإسلامي 45021